مجلة الجامعة القاسمية

للغة العربية وآدابها

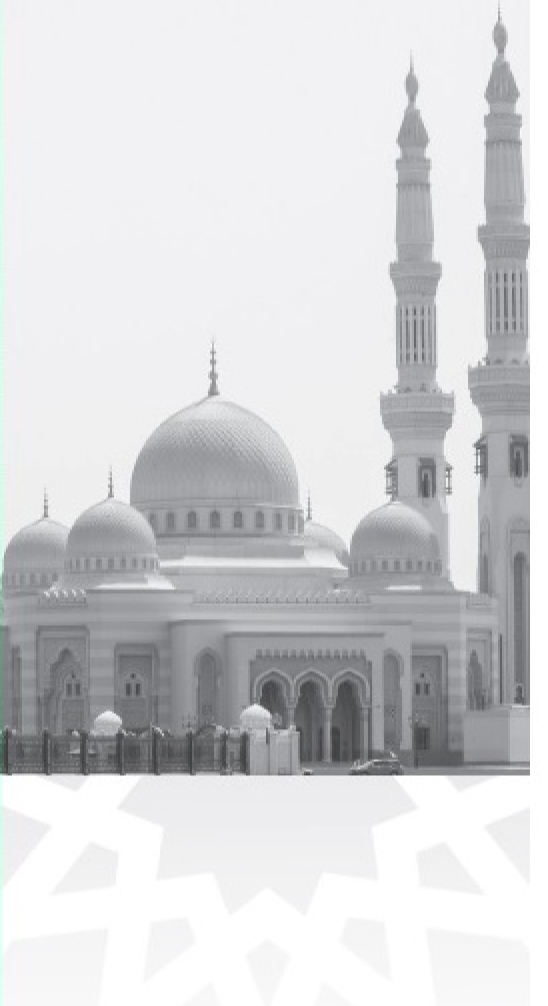

مجلة علمية محكمة نصف سنوية

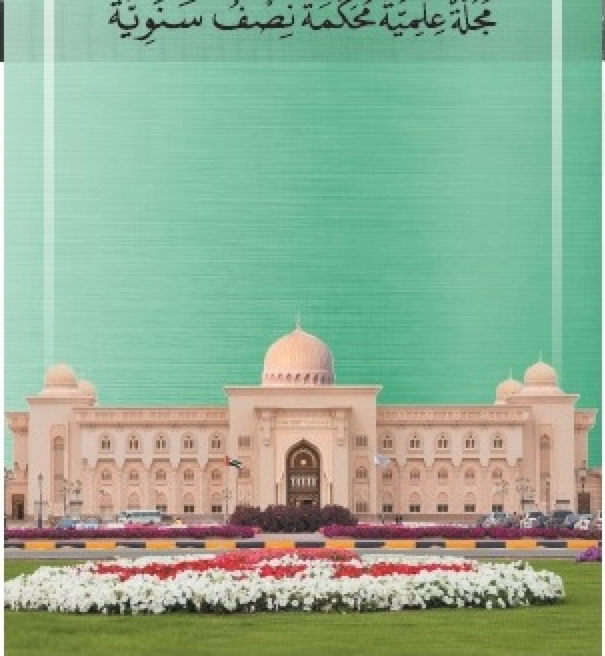

المجلد: 3، العدد: 1

ذو الحجة 1445 هـ / يونيو 2024م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات: 2958-230X

AQU Journal of Arabic Language and Literature, Vol. 3 No.1, pp. 01-50 (June 2024)
DOI:10.52747/aqujall.3.1.332
E-ISSN: 2958-2318/ ISSN: 2958-230X

العَرَاقة اللغوية: دراسة في محافظة العربية ووضوحها

LINGUISTIC AUTHENTICITY: A STUDY OF ARABIC PRESERVATION AND CLARITY[1]

عزمي محمد حمود عيال سلمان

كلية العلوم والآداب، جامعة نجران، المملكة العربّية السعوديّة

Azmi Mohammad Hmoud Eyal Salman

College of Sciences and Art, Najran University, Kingdom of Saudi Arabia

الملخص:

تهدف هذه الدراسة، وفق منهجها الوصفي المقارن، إلى تناول مفهوم (العَرَاقة اللغوية)، وهو من المفاهيم التي يكثر تداولها على الألسنة دون أن تتلقّفه أدوات البحث العلمي الجاد للوقوف على حقيقته الموضوعية وأبعاده اللسانية. فالعَرَاقة اللغوية، كما بيّنها المبحث الأول للدراسة، هي من سمات العربية التي امتازت بها على نحو لم يتحقق لغيرها من اللغات المعروفة، وذلك لمرور سبعة عشر قرنا على استقرار بنيتها واستمرار دوامها لغة فاعلة إلى اليوم، فراهنيّة العربية وبقاؤها لغة تواصل عالمية وحضارية ينفي كل ذريعة تجعل من امتدادها الزمني الطويل علامة قِدَم أو جمود. ولنفي طابع الممارسات البلاغية (المقولبة والمختصرة) عن مفهوم العراقة، فقد عمدت الدراسة، ضمن مبحثها الثاني، إلى محاولة صياغته مفهومًا لسانيًّا خاصًّا يقوم على وقائع لغوية قابلة للفحص والتحقّق الموضوعي، وقد ظهر ذلك جليًّا في تناولها للمبادئ والأسس البنيوية التي أكسبت العربية سيرورتها ومحافظتها الدائمة، فكان من أبرز نتائجها أن العربية بنواتها النحوية الثابتة واطراد

(1) Article received: April 2024, article accepted: May 2024.

تراكيبها وتحديداتها القياسية وتعليليتها قد امتلكت مبادئ داخلية شكّلت قوى محافظة كفلت لها الامتداد الزمني مع الوضوح البنيوي. وقد منحها ذلك عراقةً تجلّت في استمرارها ضمن حالة لغوية واحدة غير قابلة للتجزئة إلى حالات منفصلة بنيويًّا؛ إذ كان للزمن وطأته الشديدة على لغات أخرى، فقسَّمها إلى حالات ينقطع معها وضوح التواصل اللغوي بين أجيالها المتعاقبة، فالناطق بالإنجليزية اليوم، على سبيل المثال، يعي جيّدًا أن هنالك إنجليزية قديمة ووسطى وحديثة، وهي حالات متتابعة للغة واحدة ينقطع معها التواصل والتفاهم بازدياد عمقها التاريخي، وليس كذلك حال العربية التي ليس لها مثل هذه الحالات الانفصالية، فهي ممتدة في الزمن بغير تعطيل أو تقييد.

Abstract:

This study, using a comparative descriptive approach, aims to address the concept of "linguistic authenticity", which is a concept frequently used in spoken discourse without being thoroughly investigated by serious scientific research tools to determine its objective reality and linguistic dimensions. As demonstrated in the first section of the study, linguistic authenticity is one of the characteristics that distinguish Arabic in a way that has not been achieved by other known languages. This is due to the stability of its structure and its continued existence as an active language for seventeen centuries until today. The current relevance and survival of Arabic as a global and civilizational language of communication negates any excuse that would make its long temporal extension a sign of obsolescence or stagnation. To dispel the stereotypical and abbreviated rhetorical practices surrounding the concept of authenticity, the study, in its second section, attempted to formulate it as a specific linguistic concept based on linguistic facts that can be objectively examined and verified. This was evident in its approach to the

structural principles and foundations that have given Arabic its continuity and constant preservation. One of the most prominent findings was that Arabic, with its fixed grammatical core, consistent structures, analogical innovations, and rationality, possesses internal principles that have formed conservative forces ensuring its temporal extension with structural clarity. This has given it an authenticity manifested in its continuity within a single linguistic state that is not divisible into structurally separate states. Time has had a severe impact on other languages, dividing them into states where clear linguistic communication between successive generations is severed. A speaker of English today, for example, is well aware that there is Old, Middle, and Modern English, which are sequential states of a single language where communication and understanding are interrupted with increasing historical depth. This is not the case with Arabic, which does not have such disconnected states, as it extends through time without restriction.

الكلمات الدالة: العراقة اللغوية، المحافظة اللغوية، الوضوح اللغوي، النواة النحوية الثابتة، الاطراد التركيبي، التجديد القياسي، التعليلية.

Keywords: linguistic inveterateness, linguistic conservatism, linguistic clarity, fixed grammatical core, syntactic uniformity, Standard renewal, explanatory reasoning.

مقدمة

تُنعت العربية عادة بأنها (لغة عريقة)، وهنا يتساءل المرء: هل يمكن تبرير فكرة (العَرَاقة) لسانيًّا، أم أنها من الخصال التي ترجع إلى الذوق الشعبي؟ ومن ثَمَّ، فإن تناولها بالبحث والدرس قد يُدخل في المناقشة عنصرًا ذاتيًّا يسلبها الطابع الموضوعي ويُزيّفها من أساسها؛ إذ يجعلها مسألة من مسائل الذوق، ولا نزاع في الذوق كما يُقال. وهل سؤالنا: كيف تبدو العربية لغة عريقة؟ ينحصر بوضع إجابات جمالية بلاغية فحسب، أم أنه يفتح الباب واسعًا لتناول الجوانب العملية لمفهوم (العراقة) بوصفه مفهومًا لسانيًّا له تداعياته الوظيفية على النظام اللغوي؟ وهل القول: إن العربية هي اللغة الأكثر عراقة من بين جميع لغات العالم، لا يتجاوز كونه ممارسة بلاغية بُنيتْ على اعتقادات ليست غريبة عن الفكر الأسطوري؟

الحقيقة أن كثيرًا من الممارسات البلاغية التي تفقد طابع العلمية؛ لعمومية تداولها، يمكن لها أن تحمل قدرًا كبيرًا من التأثير على عقليات الشعوب والمجتمعات، وقد ينتج عن ذلك عوامل عاطفية لها قوتها العظيمة في المحافظة على سلامة كثير من اللغات وبقائها، ومن تلك العوامل ما يُسمَّى بـ(الهيبة اللغوية)؛ فما كان مثلًا للاتيني أن يرضى بتعلّم إحدى اللغات المتبربرة! وإرادةُ الإغريق في ألا يُضحّوا بلغتهم أمام لغة فاتح يحتقرونه هي التي حفظت الإغريقية خلال العصور، فكثيرًا ما يكون لهيبة اللغة ما يُبرّرِها من قيمتها الذاتية، فالتركية وهي لغة الفاتحين، ليست بأي حال من لغات الحضارة، وما كانت تستطيع الكفاح ضد الإغريقية التي تُمثِّل ثقافة من أعرق الثقافات[1].

ولا بأس اليوم في تلك الممارسات البلاغية إنْ كان لها سند لساني تقوم عليه، وليست مجرد مزاعم تبدو مع تكلفها ومفارقتها مغرية ومقنعة لكل من يتفوّه

(1) يُنظَر: فندريس، جوزيف: اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، ط1: المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014م، ص350، 351.

بها، فاللسانيات المعاصرة ينبغي لها ألا تتخلّى عن دورها الفاعل في تمحيص تلك الممارسات والمقولات ودراستها دراسة فاحصة وفق الأُسس والمبادئ العلمية الدقيقة.

ومن هنا، فإن التحدي الكبير الذي تضعه الدراسة أمامها يكمن، ولأول مرة، في محاولة إدخال مفهوم (العراقة اللغوية) مصطلحًا لسانيًّا مُبرأً من شُبَه الممارسات البلاغية والخطابية في نظر التحقق الموضوعي؛ فتطوير معايير حاسمة وقابلة للاختبار لتقييم عراقة العربية ومحافظة بنيتها ووضوحها هو تحدّ للدراسة بالمعنى الدقيق للكلمة؛ فهنالك تعقيدات وتفاصيل دقيقة تقوم عليها مقولة: (عراقة العربية) لسانيًّا، فهي لا تزال تُستعمَل بطريقة مجازية خالصة من غير أي معنى واضح ومن غير أي علاقة بالاستعمالات التقنية في النظرية اللسانية الحديثة.

ويُضاف إلى ذلك أن دراسة أثر الامتداد الزمني لأبنية العربية ودوامها لأكثر من سبعة عشر قرنًا هي مهمة ضرورية أيضًا لإنصافها من أحكام متعسفة ترميها بالجمود أو تنظر إليها بوصفها لغة قديمة أتى عليه الزمن، فالنظر في تلك الأحكام وتوضيح الموقف اللساني منها هو عمل لا بد منه؛ لما له من تداعيات حقيقية تقوم عليها مشكلات عملية تتعلّق بمستقبل العربية ومصيرها.

فمسألةُ: ما إذا كانت مقولة: (عراقة العربية) قابلة للتفسير كُليًّا على أسس موضوعية، وليس على أسس عنصرية أو تعصُّبية، أم لا، هي ما يهمّنا في هذه الدراسة بشكل واضح. فعلى الرغم من ذيوع القول بـ(عراقة العربية) وانتشارها مقولةً عامة تتداولها الألسنة على نحو بارز، فإنها لم تُثَر في اللسانيات العربية حتى الآن. ومن ثَمَّ يمكن القول: إن محاولة تقييم تلك المقولة وبيان الأسس العلمية التي تقوم عليها ينبغي أن تتلقّفها نظرات البحث اللساني الجاد.

وجدير بالذكر أن الباحث – بحسب اطّلاعه – لم يقف على دراسة لسانية سابقة تتناول مسألة (العراقة اللغوية) أو (عراقة العربية)، والبُعد اللساني لجوانبها المتعددة، فالبحث اللساني العربي لا يزال بحاجة ماسة إلى إفراد مثل تلك الصيغ

والمقولات بالبحث والدرس، وتفصيل القول فيها، وبيان تمثُّلاتها الوظيفية على أبنية العربية وتراكيبها.

ولهذا فقد سعت الدراسة، ضمن مبحثيها: الأول (عراقة العربية اللغوية) والثاني (القوى الداخلية لمحافظة العربية)، إلى وضع عدد من الأسئلة التي تُسهم الإجابة عنها في تحديد الأبعاد اللسانية لمفهوم (العراقة اللغوية)، وهي على النحو الآتي: هل يمكن الوصول لسانيًّا إلى أكثر من الممارسة البلاغية لمقولة (عراقة العربية)؟ وهل يُمكن تحويل تلك المقولة إلى عبارة تقنية أكثر وضوحًا؟ وهل داء العربية اليوم، كما يرى بعضهم، هو داء الكلاسيكية الرجعية؟! وهل يُمكن إزالة سوء الفهم الذي يساوي العراقة بالكلاسيكية أو القِدَم؟ وهل لعراقة العربية ارتباط وظيفي بوضوح نظامها ورفع كفاءتها التواصلية؟ وما هي القوى الداخلية الدائمة لمحافظة العربية وبقاء وضوحها؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، فقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي المقارن في تناول مقولة العراقة وبيان ما لها من مظاهر وتمثّلات بنيوية ووظيفية على نظام العربية.

وفي هذا المقام تجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة هي من ضمن دراسات مشروع بحثي يحمل الرمز: (NU/RG/SEHRC/12/16)، وهو من المشاريع البحثية المدعومة للمرحلة الثانية عشرة في جامعة نجران، ولهذا فإنني أتحيّن الفرصة لأُزجي جزيل الشكر وعظيم الامتنان لوزارة التعليم ولعمادة البحث العلمي في جامعة نجران/ المملكة العربية السعودية، للدعم المالي والتقني الذي حظيتُ به طيلة إعداد المشروع.

المبحث الأول
عَرَاقة العربية اللغوية

إنَّ لمقولة (العراقة) استعمالات متعددة في اللسان العربي، فيُقال: فرس عريق ورجل عريق؛ أي: كريم أصيل؛ فعِرْق كل شيء: أصله، والجمع أعْرَاق وعُرُوق، يُقال: أعْرَق الرجل؛ أي صار عريقًا، وهو الذي له عروق في الكرم[1]. وقد تُوسِّع في استعمالها، فأصبحت تُطلق على أشياء كثيرة، فيُقال: شعب عريق وأمة عريقة وحضارة عريقة وثقافة عريقة ودين عريق ولغة عريقة ... إلخ.

ويبدو أنه لا ضير في استعارة الجذر (عرق) وإطلاقه نعتًا، ولو مجازًا، على اللغات، فلابن جنّي سابقة في استعمال مثل تلك المقولات المجازية حين نعت العربية بـ(الشجاعة) في الحذف والزيادة والتقديم والتأخير ...[2]، فقد أفسح للشجاعة ولغيرها من النعوت بابًا واسعًا في الدرس اللغوي المتقدِّم حين جاء بما يُبرِّرها لسانيًّا.

وحديثًا استُعملت في الدرس اللساني مقولات مجازية كثيرة نحو: (الهيبة اللغوية)، كما مرّ آنفًا، و(الغيرة اللغوية) و(التسامح اللغوي) و(الهيمنة اللغوية)[3]، وقد نُعت المنهج الوصفي في علم الأصوات الوظيفي مجازيًّا بأنه (ديمقراطي)، بمعنى أن الوصفيين كانوا يعتبرون جميع المقاييس الصوتية وكل الأصوات متساوية ضمنيًا في إمكانية استخدامها في اللغة[4].

---

(1) يُنظَر: ابن منظور، محمد بن مكرم (ت: 711هـ): لسان العرب، ط3: دار صادر، بيروت، 1414هـ، 10/ 240 – 248.

(2) يُنظَر: ابن جني النحوي، أبو الفتح عثمان (ت: 392هـ): الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط4: الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1999م، 2/ 392.

(3) يُنظَر: دو سوان، أبرام: كلمات العالم (منظومة اللغات الكونية)، ترجمة صديق محمد جوهر، ط1: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2011م، ص175، 176، 211، 212، 402، 404.

(4) يُنظَر: سامسون، جفري: مدارس اللسانيات (التسابق والتطور)، ترجمة محمد زياد كبة، ط1: جامعة الملك سعود، الرياض، 1417هـ، ص124.

ومثلُ ذلك قد يُقال في نعت العربية بـ(العراقة)، فكثرة تداوله الآن قد تخلع عنه ثوب الممارسات البلاغية وتُلبسه ثوبًا من الموضوعية والحقيقة إذا ما أُقيمت الدلائل اللسانية التي تُبرِّره.

وقد نُقِل عن سوسير (1857 – 1913) قوله: "إن من غير الممكن الاستغناء عن بعض الاستعارات المجازية"[1]. ولكن يبقى مع ذلك أن لكل لغة خلفيتها الثقافية التي تحدد نمطًا معينًا للاستدعاءات المجازية[2].

ومهما يكن من أمر، فإن الدراسة، وعلى غير معنى: (الأصالة) للتأثيل اللغوي في استعمال مقولة (العراقة)، ستقف على معناها المتصل بـ(الامتداد) و(الديمومة)، فمن ضمن أصول معاني (عرق) الصحيحة الأربعة التي ذكرها صاحب المقاييس هنالك معنى: الامتداد والتتابع والاصطفاف في أشياء يتبع بعضها بعضًا[3]؛ فيُقال: أعرق الشجر وعَرق إذا امتدت عروقه بغير تقييد، والعَرَق كل مضفور مصطف متصل[4].

ولا ينفي ذلك التحديدُ المنهجي إمكان تناول معناها المتعلِّق بـ(الأصالة) بحثًا ودراسة لسانية، فقد تنبّه اللسانيون إلى اللغات الأصيلة في بنية تكوينها وتلك اللغات التي يرجع جزء كبير من تكوينها البنيوي إلى آثار الهُجنة والاختلاط بلغات أخرى، والمثال الذي تنطبق عليه الحالة هنا هو اللغة الإنجليزية، فقد نُعتت في القرن السادس عشر بأنها الأكثر هُجنَة وتخليطًا بين اللغات، حيث يعود أصلها

---

(1) المرجع السابق، ص40، 41.

(2) يُنظَر: إفيتش، مليكا: اتجاهات البحث اللساني، ترجمة سعد مصلوح ووفاء فايد، ط1: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000م، ص453.

(3) يُنظَر: ابن فارس، أحمد القزويني (ت: 395هـ): معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ط1: دار الفكر، القاهرة، 1979م، 4/283-288.

(4) يُنظَر: ابن منظور، لسان العرب، 10/240–248.

إلى مزيج من البريطانية القديمة مع الساكسونية، ويُضاف إلى ذلك استعارات معجمية من التجار الفرنسيين(1).

ومن ثَمَّ فإن إعراض الدراسة هنا عن جانب (الأصالة اللغوية) لمقولة العراقة وتولية وجهتها نحو جانب (الامتداد) و(الديمومة) لا يعدو أن يكون إجراء بحثيًّا يلتزم بمحددات منهجية مرسومة سلفًا، دون أن يعني ذلك أي إهمال أو تقليل لأهمية جانب على آخر.

ويقتضي هذا التحديد تبيين أن مصطلح (اللغة العربية) حين يُطلَق، فإن ذلك يعني، حتى مع استثناء اللهجات، امتدادًا طويلًا تدخل فيها عربية العصر الجاهلي والإسلامي حتى نصل إلى العربية النموذجية المعاصرة، وليس على المتكلم أن يكون مقصورًا على طور واحد منها. بل حتى لو تجاهل المرء الكتابات العربية كلها التي تنتسب إلى الفترات القديمة، كما يفعل الطلاب عادة حين يتعلمون اللغات الأوروبية الحديثة ويغضون الطرف عن حالاتها القديمة والوسطى، فإنه لا يمكنه الهروب من ماضي العربية المثقل بفنون القول، فالعربية مسكونة بماضيها، وهي لغة دين عالمي، وذات تراث أدبي غني لا مثيل له، كما أنها لغة إمبراطوريات عديدة(2).

فقد قرّر الإسلام مستقبل العربية، فكان امتدادها الواسع إيذانًا بانتشارها لغة خطاب بين الناس وبقيام أدب عربي عريض، ومنذ ذلك الحين قاومت العربية تقلّبات الزمن، فلم تنقطع عن الاستعمال لغة حديث ولغة أدب. فالعربية ذات تاريخ طويل يبدأ في القرن الخامس قبل الميلاد إذا أدخلنا في اعتبارنا النقوش

---

(1) يُنظَر: لو فيفن: اللغة ودارسوها (تاريخ اللغويات)، ترجمة محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب (الموسوعة اللغوية)، المجلد الثالث (بعض المظاهر الخاصة باللغة)، ط1: جامعة الملك سعود، الرياض، 1421هـ، ص812.

(2) يُنظَر: جستس، ديفيد: محاسن العربية في المرآة الغربية أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوروبية، ترجمة حمزة قبلان المزيني، ط1: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1425هـ، ص28.

الثمودية والنقوش الشبيهة بها، ويستمر تاريخها بعد ذلك في خط متصل إلى اليوم، فهذا التاريخ الطويل المتصل لم يُقدَّر لأي لغة من لغات العالم أن تسير فيه[1].

وهكذا يتمثَّل دور العربية في كونها سجلًا ثقافيًّا حيًّا: فتراكيبها ومفرداتها هي سجل ناطق؛ لأن كل تركيب أو عنصر معجمي استُعمل في القرآن الكريم أو في الشعر القديم، يبقى حيًّا ويمكن له أن يُستعمَل في كل حين[2].

وعندما يُستخدَم مصطلح (العربية)، فقد يُشار به إلى شيء أقدم من قصيدة (بيوولف) Beowulf، وهي ملحمة طويلة تُعد أحد أهم أعمال الأدب الإنجليزي القديم (أُنتجت بين 975 – 1025م)، أو ربما يُشار به إلى شيء معاصر لصحيفة عربية يومية صدرت بالأمس، وهذا، كما يقول بعض الباحثين الغربيين، وضعٌ غريب من وجهة نظر القارئ الذي درس اللغات الألمانية أو الرومانسية، وهو وضع لا شك تنزاح غرابته عندما يظهر للناظر ما يُسوِّغه لغويًّا. ولا شكّ أن هنالك، في فترات مختلفة من امتداد العربية، اختلافات في المعجم والأسلوب، وهناك اختلافات ليست أساسية أو ذات شأن في النحو، ولكنها ليست أكبر من حيث النوع من الاختلافات التي يجدها القارئ الغربي اليوم في مجلتي Nature وTime، أو ليست أكبر من الاختلاف بين أسلوبي الشاعر الألماني غوته (1749 – 1832م) القديم والمتأخر[3]. فاختلافات العربية، بجميع مستوياتها، تبدو مع فارق الزمن وطول الامتداد، كأنها اختلافات راهنيّة لا ينبني عليها أي انقطاع لغوي أو توتر بنيوي.

وكل من يرغب بتجزئة العربية النموذجية باستخدام مصطلحات مثل: (العربية المبكرة) في وصف لغة الشعر الجاهلي أو (العربية المعاصرة) لشكل العربية المستخدم في الصحف والكتب والمحاضرات والأخبار الإذاعية والتلفازية، فإن فعل التجزئة هذا لا يعدو أن يكون غرضًا من أغراض الدراسة أو مُحدِّدًا من مُحدِّداتها

(1) يُنظَر: بكر، السيد يعقوب: دراسات في فقه اللغة العربية، ط1: مكتبة لبنان، بيروت، 1969م، ص9.
(2) يُنظَر: جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص29.
(3) يُنظَر: المرجع نفسه، ص18.

التي لا تتنافى مع إطلاق مصطلح (العربية النموذجية) أو (اللغة العربية) — اختصارًا – على هذه الأطوار كلها[1].

فالعربية تمتاز بمحاسن متعددة، ومن أبرز تلك المحاسن ما يُمكن تسميته بـ(العَرَاقة اللغوية)، وهي سمة إيجابية تتحلَّى بها العربية على نحو استثنائي من حيث امتداد عمقها الزمني الطويل مع وضوحها التواصلي، والعربية إذا نُعتت بـ(العَرَاقة)، فإن ذلك لا يعني نعتها بالقِدَم إطلاقًا كمَن يراها لغة شائخة جامدة منزوفة الطاقة والمائية[2]، وإنما يُقصد ديمومتها وحيويّتها ووضوحها، فهي لغة ممتدة متصلة وحيّة إلى يومنا هذا، ومن ثَمَّ فإن نعتها بـ(العَرَاقة) يعني فيما يعنيه أن فيها عناصر بنيوية ثابتة مستقرة ضمنت امتدادها واستمرارها الزمني على نحو لم يتحقق لغيرها بتاتًا[3].

وللتدليل على عراقة العربية يُمكن النظر في مستويات العربية المعاصرة واتصالها ببنية العربية الفصيحة، فلهجات العربية المعاصرة بالرغم من اختلافها عن العربية الفصيحة من حيث الإعراب وغيره إلا أنها تحتفظ بالبناء النحوي نفسه الذي يُشبه في ثباته بنيةَ لغات سامية قديمة. ولهذا يقول أنطوان ماييه (1866 – 1936م): "ظلّت بنية العربية المعاصرة شبيهة جدًّا ببنية لغات سامية يرجع تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة. وعلى الرغم من الاختلاف الكبير الذي بينها، تبقى اللهجات العربية المعاصرة محتفظة بالبناء النحوي نفسه"[4].

وسبب ذلك أن العربية في مجموعها كما يقول شارل فيرغسون (1921 – 1998م) في دائرة المعارف البريطانية: "لغة محافظة تتغيّر ببطء، فدرجة

(1) يُنظَر: المرجع نفسه، ص18.

(2) يُنظَر: شاهين، عبد الصبور: العربية لغة العلوم والتقنية، ط1: دار الاعتصام، القاهرة، 1983م، ص7، 8.

(3) يُنظَر: عيّاد، شكري محمد: اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي، ط1: انترناتيونال، القاهرة، 1988م، ص99.

(4) جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص22.

الاختلاف مثلًا بين عربية القرن الثامن وعربية القرن العشرين أقل قلة واضحة منها بين إنجليزيتي هذين القرنين"[1].

وبالنظر في النصين السابقين نلاحظ اجتماعهما على سمة واحدة للعربية هي (المحافظة)، وهي سمة ترتبط بالجانب البنيوي والتركيبي للعربية، وارتباطها به ينبني عليه القول بـ(وضوحها) التاريخي كأداة تواصل واتصال بين أجيال متعاقبة من الناطقين بها دون انقطاع عبر قرون متطاولة من الزمان، فهي بعيدة عن الاختلاط الذي أُصيبت به أغلب اللغات نتيجة التطورات والتغيرات اللغوية التاريخية.

هذه الروح المحافظة، فعلت الكثير في الإبقاء على العربية دون تغيير تقريبًا طوال العصور، فقد أضعفت تأثير الزمن، فأمكن للأدب القديم أن يُقرأ اليوم في سهولة نسبيّة، وقلّلت أيضًا من آثار البيئات المختلفة، فأمكن للعرب في مختلف أنحاء العالم العربي أن يتحدّث بعضهم إلى بعض دون صعوبة ظاهرة. فقد حدّت هذه الروح المحافظة من التباين بين العربية الفصيحة ولهجات الكلام، فالمحافظة بوجه خاص أسهمت في حماية العربية من الفوضى اللغوية؛ إذ حدّت من آثار الزمان والمكان[2].

وهكذا فقد بقيت العربية في شكلها الثابت نسبيًّا لغة حيّة في الوقت الذي ماتت فيه معظم اللغات التي تُعدُّ صنوًا لها (كاللغة اللاتينية مثلًا) فللمرة الأولى في تاريخ البشرية يُكتَب للسان طبيعي أن يُعمّر حوالي سبعة عشر قرنًا محتفظًا بمنظومته الصوتية والصرفية والنحوية، فيُطوِّعها جميعًا ليُواكب التطوّر الحتمي في الدلالات دون أن يتزعزع النظام الثلاثي من داخله ودون أن يتعقّد وضوح اللغة كوسيلة تواصل. بينما يشهد العلم في اللسانيات التاريخية أن الأربعة قرون كانت

(1) بكر، دراسات في فقه اللغة العربية، ص15.

(2) يُنظَر: المرجع السابق، ص16.

فيما مضى هي الحد الأقصى الذي يبدأ بعده التغير التاريخي لمكوّنات المنظومة اللغوية ويبدأ بعده تعطّل الفهم والاتصال بين أجيال الناطقين[1].

فعلى سبيل المثال، كانت الإنجليزية القديمة (الأنجلوساكسونية) والإنجليزية الوسطى تحويان ما يُعادل مِثلَي ما في الإنجليزية المعاصرة من الأفعال الشاذة، فلو كان تشوسر (1343 – 1400م) حيًّا لقال لك: إن صيغ الماضي للأفعال الشاذة، مثل: to chide, to geld, to abide, to cleave، هي: chid, gelt, abode, clove[2].

ويمكن ضرب مثال آخر على الغموض وعدم الوضوح الناتج عن تداخل فصائل الكلمات بين الإنجليزية القديمة والإنجليزية المعاصرة: يقول اللسانيون اليوم: إن مِن الأفضل أن يكون في اللغة عددا محدودا من الكلمات التي تقوم بوظيفتين، فحين تنتمي معجمية إلى فصيلتين من فصائل الكلمات (كأن تكون اسمًا وفعلًا معًا)، فربما يؤدي هذا إلى الغموض، انظر إلى العنوان الصحفي التالي: French bridge splits "انفصل الجسر الفرنسي" بوصفه مثالًا على اللغة الإنجليزية المعاصرة التي يكثر فيها تداخل فصائل الكلمات، فأكثر التأويلات وضوحًا أن هذا العنوان يتعلّق ببناء يمر من فوقه طريق، فوق نهر مثلًا، في مكان ما من فرنسا وقُسِّم إلى أقسام عدة. لكن قراءة التقرير الذي جاء تحت العنوان، كما ينقل صاحب كتاب (هل بعض اللغات أفضل من بعض؟)، تُوضِّح أن العنوان يتكلم عن أمر سياسي لا مادي؛ إذ حدث انشقاق بين فريقين في أحد المؤتمرات الاقتصادية ثم سعى الوفد الفرنسي ليقترح حلًّا وسطًا بين الفريقين.

ويعود سبب الغموض إلى أن كل واحدة من الكلمات الثلاث في العنوان الصحفي تقوم بوظيفتين: كلمة French صفة في التأويل الأول واسم في التأويل

---

(1) يُنظَر: المسدّي، عبد السلام: الهوية العربية والأمن اللغوي، ط1: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 2014م، ص265.

(2) يُنظَر: بنكر، ستيفن: الغريزة اللغوية (كيف يبدع العقل اللغة؟)، تعريب حمزة قبلان المزيني، ط1: دار المريخ للنشر، الرياض، 2000م، ص349، 350.

الثاني، وكلمة bridge اسم في التأويل الأول وفعل (بمعنى مجازي) في التأويل الثاني، وكلمة splits فعل في التأويل الأول واسم في التأويل الثاني. ولو وُجدت عناوين صحفية في زمن اللغة الإنجليزية القديمة لما نشأ هذا الغموض؛ ذلك أنه لم يكن فيها إلا كلمات قليلة تقوم بوظيفتين، ومن ذلك أن للاسم والفعل المقابلين للاسم bridge المعاصر شكلين مختلفين: brycg "اسم" وbrycgian "فعل". وقد تعرّضت بنيتا الكلمتين للتسهيل في أثناء تطور اللغة الإنجليزية، وهو ما أدى إلى أن تقوم الكلمة بوظيفتين مما نتج عنه هذا الغموض[1].

ومما يُذكَر في الإنجليزية الحديثة المبكرة (الإيليزابيثية) أن الملك جيمس الأول (1566 – 1625م) حين زار كنيسة سان بول الكاتدرائية عقب انتهاء المهندس من بنائها، عبّر عن إعجابه بها بهذه الكلمات: "Amusing, Awful, Artificial". فسُرّ المهندس غاية السرور، ولكن هذه الكلمات قد انتقلت في عصرنا من معنى الاستحسان إلى معنى الاستقباح والاستهجان والاستهزاء[2].

فهل سيرى الناطق بالإنجليزية المعاصرة أن بُعد التواصل وانقطاعه عن إنجليزية الأمس هو علامة تطور ورُقيّ، وهل يُشترط في اللغة الحية التي تليق بمجتمع حيّ أن يطالها التغيير الواسع الذي ينتج عنه الوهم وسوء الفهم في قراءة التراث؟! إنَّ من غريب المواقف أن تجد من يغفل عن أهمية حفظ كيان اللغة، ويرى في مجرد تغير الإنجليزية المعاصرة وانقطاعها تواصليًّا عن حالاتها القريبة، التي لا تتجاوز ثلاثة قرون، علامة تطوّر ورُقي، فامتداد اللغة وبقاء تواصلها حيًّا ليس جمودًا في

---

(1) يُنظَر: ديكسون، روبرت وليم: هل بعض اللغات أفضل من بعض؟، ترجمة حمزة قبلان المزيني، ط1: دار كنوز المعرفة، عمّان، 2018م، ص299.

(2) يُنظَر: موسى، سلامة: البلاغة العصرية واللغة العربية، ط2: دار ومطابع المستقبل، القاهرة، 1964م، ص73.

اللغة أو الذهن، فسلوك اللغة في حالة واحدة من ديمومة التواصل ووضوحه لا يتنافى مع التطور الحضاري وإيجاد كلمات جديدة(1).

فمثل هذا الاختلاط والتناقض أو التعدد في التأويل لا يوجد بين العربية الآن أو قبل سبعة عشر قرنًا، ولا يُمكن بأي حال من الأحوال أن يُعدّ وضوح العربية الممتد علامة تخلّف أو جمود، بل إن الانقطاع التواصلي بين حالات اللغة هو الجمود بعينه؛ فمن ثمرات عراقة العربية وامتداد بنيتها أنَّ تلك القرون المتطاولة لم تقف عائقًا أمام وضوحها وحسن فهمها على مدى الزمان، فليست هنالك لغة عربية قديمة ووسطى وحديثة على نحو ما هي عليه الإنجليزية.

وقد تنبّه بعض اللسانيين المقارنين إلى الخطر الذي يُحدق باللغات عندما ينقطع امتداد بنيتها وتكون سرعة التغيّر في جانبها البنيوي والتركيبي كبيرة، ورأوا في ذلك فسادًا وتدهورًا تاريخيًّا. فقد كان أ.شلايشر (1821 – 1868م) قاسيًا على الإنجليزية فيما يتعلق بالتدهور التاريخي، وأشار إلى التغيرات التي خضعت لها اللغة الإنجليزية منذ انفصالها عن اللغات الأخرى بأنها تُظهر لنا كيف يمكن للغة شعب مهم في التاريخ وفي التاريخ الأدبي أن تتدهور بسرعة(2).

وقد لا تكون مسألةً تقليدية أو من باب تسهيل الدراسة تلك التي تجعلنا نُقسِّم تاريخ اللغة الإنجليزية إلى ثلاث فترات: قديمة (425 – 1066م) ووسطى (1150 – 1500م) ومعاصرة، فهل تُعدّ هذه التقسيمات ثلاث حالات للغة واحدة أم تُعد كل واحدة منها لغة قائمة بذاتها؟!(3).

إن هنالك إنجليزية معاصرة لها تراكيب وكلمات لم يكن ليعرفها أو يستعملها متكلم إنجليزي قبل خمسة قرون، فكثيرة هي التراكيب التي استجدّت فيها والألفاظ

---

(1) يُنظَر: المرجع نفسه، ص73 -76.

(2) يُنظَر: روبنز، روبرت هنري: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ترجمة أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة (227)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997م، ص262.

(3) يُنظَر: ليونز، جون: اللغة واللغويات، ترجمة محمد إسحاق العناني، ط1: مؤسسة رلي للنشر، عمّان، 1991م، ص100، 101.

التي تغيّرت دلالاتها، وكل هذا وليس بين العصرين إلا زمن وجيز قياسًا بزمن امتداد العربية، وإذا ابتعدنا أكثر من ذلك في الزمن فإننا نجد أن الإنجليزي في العصر الحديث لا يكاد يفهم أو يعي ما يقوله أي كاتب أو شاعر عظيم من شعراء الإنجليزية القدماء(1).

وهكذا لا يمكن للناطق بالإنجليزية الرجوع إلى أبعد من أواخر القرن السادس عشر، في حين يمكن في العربية أن يعود الناطق بها إلى القرن السابع الميلادي(2).

وقد رأى بعض الباحثين العرب في وضوح ذلك الاتصال (كلاسيكية رجعية)، ولهذا تجده يقول: "وداء اللغة العربية الأصيل في جميع الأقطار العربية، هو داء الكلاسيكية الرجعية التليدية ... وهي لذلك لا تكتسب طريفًا؛ لأنها قانعة بتليدها. وهذه حال يجب ألا نرضاها نحن؛ لأنها تحول دون أن نكون أمة عصرية"(3).

فنحن هنا أمام موقف غرائبي يتنافى وفهم طبيعة أصل وضع اللغات وتكوينها الوظيفي القائم على الفهم والإفهام، فهو موقف يُضحِّي بوضوح العربية وإبانتها الممتدة في الزمان والمكان – وهي ميزة لو وُجدت في أيّ لغة فإنها ستفخر بها على باقي اللغات – لأجل التغيير وتقبّل كل طريف!

ولذلك فإننا نجد تناقضًا كامنًا في مقولة الشيخوخة والرجعية والنظر إلى العربية كلغة كلاسيكية عفا عليها الزمن، فالزمن لم يكن شديد الوطأة عليها ولم يكن له أن يفتح باب تدهورها، فهي لم تزدد مع الزمن إلا إحكامًا ووضوحًا، ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان لدينا اليوم عربية واحدة وإنما لغات عربية (عربيّات).

ولكن هل يُعد غياب ذلك الجانب من التنوّع عن العربية مظهر فقر ورجعية؟ فعلى الجانب الشكلي، يُجيب أنطوان ماييه عن ذلك بقوله: "على الرغم

---

(1) يُنظَر: أنيس، إبراهيم: طرق تنمية الألفاظ في اللغة، ط1: مطبعة النهضة الجديدة، القاهرة، 1967م، ص11.

(2) يُنظَر: جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص29.

(3) موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، ص82، 83.

من طابع المرونة والتنوّع الذي تتميّز به الفصيلة السامية عن الفصيلة التركية إلا أنها بدت أقلّ قدرة من الفصيلة الأوروبية على توليد نوعيّات لغوية جديدة. لذلك لا نجد في العالَم العربي أي شيء يُقارب ذلك التنوّع الغني الذي يشهده عالَم اللغات الرومانسية: كالإيطالية والإسبانية والرومانية والقشتالية والبروفانسية والفرنسية"[1].

وعلى الجانب الوظيفي، يرى تشارلز بالي (1865 – 1947م) أن اللغات الأوروبية الحديثة قد تبدو زاخرة بالقوالب النحوية المتنافسة، وهو ما يُعطي الفرد حرية كبيرة يحظى بها في استخدامه للغة. وقد يرى كثيرون في ذلك ميزة (يُهنئون أنفسهم عليها)، إلا أن هذه التنويعات الشكلية التي تزيد عن الحاجة تُمثِّل في الواقع عقبة كبيرة؛ إذ إن تعدد الإمكانات اللغوية المسموح بها لا يُساعد مطلقًا على سرعة التواصل، فكل تنوّع يفترض اختيارًا، والقيام بجهد غير ضروري تبعًا لذلك[2].

ونحن نرى ذلك الوضوح جيدًا في الطريق الذي سلكته العربية حيث توجد لهجات متعددة للغة واحدة هي العربية، وبصورة مختلفة نرى ذلك الغموض في الطريق الذي سلكته الإنجليزية حيث توجد تنويعات متعددة للغات مختلفة هي (الإنجليزيات).

فثمة اليوم مسألة مثيرة للاهتمام وهي مسألة (الإنجليزيات): إلى أي مدى يمكن للغات الإنجليزية أن تتوسع في تغيّرها؟ لا توجد طريقة حقيقية، على سبيل المثال، لمعرفة عدد التنويعات الجديدة للإنجليزية التي يمكن أن تتطور في العقود المقبلة. ولا يمكن أن نقرر في هذه المرحلة كيف يمكن للشكل المنطوق لكل تنوع أن يستمر في التميز بعيدًا عن التنويعات الأخرى، وبالتالي كيف يمكن لقابلية لغات التواصل العالمية الإنجليزية أن تصبح في النهاية في مستوى الحديث. وهكذا لا يوجد لدينا دليل واضح، ولا يمكننا القول: إنه إذا واصلت الإنجليزية التطور

(1) جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص22.

(2) يُنظَر: المرجع نفسه، ص283.

والنمو بشكل منفصل، فإن هذا سينهي بالضرورة الوضوح العالمي للإنجليزية الاحترافية المكتوبة. لا شك في أن هذه ستكون لبعض الفئات مناسبة كسياسة باب مفتوح للفوضى اللغوية، وفي الشروط العملية سيكون ضروريًّا للمهيمنين على الإنجليزية المكتوبة من أجل إبقاء الوضوح العالمي سليمًا وأساسيًّا أن يمنعوا التغيير المستقبلي خارج حد معين(1).

والصحيح أن مقولة الإحكام وعدم فتح باب التغير واسعًا، تُدخل على نظام العربية شيئًا من التماسك والوضوح، وإذا لم يكن ذلك فإن النظام برمته يخرج عن السيطرة. إن الرؤية التي تجعل من امتداد العربية واستمرارها الطويل عيبًا هي رؤية تنفي عن نظامها أي ملمح من الملامح الظاهرة لحيويتها واستقرارها.

إن من الحقائق التي أقرتها اللسانيات الحديثة: أنه في لغة ما قد يكتسب النظام اللغوي بفعل مبادئ داخلية شيئًا من الإحكام يُفسد صلاحية موازنته بأنظمة ألسنة أخرى افتقرت لتلك المبادئ أو اكتسبت بعضها دون بعض. والقول بأن كل لغة محكمة التركيب وكافية بالدور الذي تقوم به في المجتمع الذي يستخدمها لا يمنعنا من النظر إلى مفهوم الإحكام من زاوية أخرى، كالنظر إليه من زاوية تأثّره بفعل التغير، فاللغات عرضة لعملية التغير التي لا تتوقف، ولكن أثر التغير فيها ليس واحدًا؛ إذ تتفاوت اللغات من حيث سرعة التغير ويكون في ذلك دلالة واضحة على تفاوت مستوى إحكام تركيبها، فكلما كان التركيب أكثر إحكامًا كلما قلّ فعل التغيير فيه(2).

إن تقدُّم البحوث المتعلقة باستقصاء تطور اللغات التاريخي جعل العلماء يدركون بوضوح أكثر من ذي قبل أن أثر التغييرات في المجموعات اللغوية ليس واحدًا، فمن المؤكد أن هنالك مبادئ عامة تحكم تطور اللغات وتغيّرها، ولكن هنالك أيضًا مجموعات لغوية بكاملها لم تكن أسيرة لتلك المبادئ، أو بشكل

---

(1) يُنظَر: مونتغمري، سكوت: هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية – اللغة الإنجليزية ومستقبل البحث العلمي، ترجمة فؤاد عبد المطلب، سلسلة عالم المعرفة (419)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2014م، ص95 - 99.

(2) يُنظَر: ديكسون، هل بعض اللغات أفضل من بعض؟، ص30.

أوضح لم يكن أثر مبادئ التغير اللغوي فيها مشابهًا للأثر الذي أحدثته في مجموعة اللغات الهندو أوروبية، وقد أشار سوسير إلى مجموعة اللغات السامية بوصفها مثالًا على اللغات التي أُصيبت بحالة من السكون اللغوي(1).

فهنالك محافظة لغوية في فصيلة اللغات السامية تظهر في قلة التغيرات الصوتية التي أصابتها مقارنة بغيرها، فقد احتُفظ بالحروف كما هي في الفصيلة السامية أكثر مما فُعل في غيرها من الفصائل، فالأمر إذًا يتعلّق بمحافظة لغوية لا مثيل لها(2). وهنالك حقيقة واقعة تُقرُّها اللسانيات الحديثة، وهي سعة الخراب الصوتي الذي لحق بفصيلة اللغات الهندو أوروبية مقارنة باللغات السامية؛ إذ أدرك اللسانيون أن فصيلة اللغات السامية تمتلك محافظة لغوية تُعطيها سيرورتها المستمرة، وهي ميزة قد لا تعلوها أي ميزة أخرى(3).

ويعترف سوسير أن أول ما يجذب الانتباه عند مقارنة اللغات السامية باللغة الأصلية لها، التي أُعيد بناؤها، هو احتفاظ هذه اللغات ببعض الصفات الأصيلة على المستوى التركيبي والمستوى الصوتي. فاللغات السامية تُكوّن فيما بينها نمطًا واحدًا، وهي تفوق في تماسكها بقية الأسر اللغوية، فهي مجموعة ثابتة مستقرة، كل لغة فيها تحتوي على صفات ورثتها عن الأسرة(4).

وكما أن فعل التغيير ليس واحدًا على مستوى المجموعات اللغوية الكبيرة، فإن أثره مختلف أيضًا على مستوى اللغات المفردة، فالعربية من بين اللغات السامية بقيت هي اللغة الأكثر محافظة على الملامح الأصيلة للأسرة، وهو ما منحها ديمومة فاقت بها أخواتها. وثبات بنية العربية واستقرار نظامها لم يكن ميزة لها دون أخواتها،

---

(1) يُنظَر: دي سوسير، فردينان: دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، ط1: الدار العربية للكتاب، تونس، 1985م، ص345.

(2) يُنظَر: المرجع نفسه، ص346، 347.

(3) يُنظَر: المرجع نفسه، ص343.

(4) يُنظَر: المرجع نفسه، ص345.

ولكن تميُّز العربية عن باقي أخواتها يكمن في ذهابها في سمة المحافظة إلى حدها الأقصى؛ لتكون بذلك اللغة الأكثر عراقة وديمومة من بين لغات العالم أجمع.

وقد أدرك المستشرقون أن للغات السامية خصائص لغوية مشتركة، ولكن كل لغة منها طوّرت وجهًا أو آخر من هذه الخصائص بشكل ما، وقد طوّرت العربية الخصائص الأصيلة في أحسن صورة وأكملها: هكذا يُحدد كارل بروكلمان (1868 – 1956م) مكانة العربية بين اللغات السامية الأخرى. وبنى ذلك على اعتبار أن العربية تمتاز عن أخواتها، في محافظتها على الأصول اللغوية السامية المشتركة على نحو لا نجده بالقدر نفسه في غيرها، فهي اللغة الأكثر أصالة من بين أخواتها من حيث: كمالها في مجال الأصوات، ووجود الإعراب فيها، وأصالتها في مجال التركيب، وثروتها اللفظية وأصالة ألفاظها اشتقاقًا ودلالة[1].

فالعربية من حيث هي لغة سامية تُشارك بالطبع في خصائص اللغات السامية، ولكن تبقى لها بعد ذلك خصائص تتميز بها من حيث هي اللغة السامية الأكثر محافظة، فالعربية لغة قوية قاطعة ورثت حيويّتها على الأيام، فأعانتها هذه الحيوية على مغالبة الزمان[2].

ويرى المستشرق الألماني ج.برجشتراسر (1886 – 1932م) أن العربية رغمًا لطول الزمان الماضي عليها قبل بروزها في ميدان التاريخ، قد حفظت الحروف الأصلية حفظًا أتمّ من سائر اللغات السامية الأخرى[3]. فمن المسلم به عامة أن العربية حافظت على الحروف والحركات السامية القديمة أكثر مما حافظت عليها أي لغة سامية أخرى[4].

(1) يُنظَر: فيشر، فولف ديترش: اللغة العربية في إطار اللغات السامية، حوليات الجامعة التونسية، 23، 1984م، ص43 – 53.

(2) يُنظَر: بكر، دراسات في فقه اللغة العربية، ص15.

(3) يُنظَر: ج. برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، ط2: مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994م، ص23.

(4) يُنظَر: بكر، دراسات في فقه اللغة العربية، ص15.

وقد يُقال إن أصوات الكلام لجميع اللغات تتبدَّل غالبًا في الاتجاه نفسه (مبدأ أحادية القوانين الصوتية وكلّيّتها)، ومردّ ذلك إلى استعمالنا جميعًا أجهزة النُّطق ذاتها والعضلات ذاتها والجهاز العصبي ذاته للتحكم بها، وباختصار: إننا نخضع للضغوطات الآلية والفيزيولوجية ذاتها.

ولكن هنالك بعض الأسباب الحقيقية التي يُمكنها أن تحد من انطلاقة التغيرات الصوتية وحدودها اللامتناهية، فهنالك مبادئ بنيوية تحفظ اللغة من أي خراب قد يحدق بنظامها، وهذه المبادئ الداخلية مع عوامل خارجية أخرى يُمكن أن يطلق عليها اسم (قوى المحافظة)، كانت هي السبب الأساس في محافظة اللغات السامية وخصوصًا اللغة العربية.

فقد تعالت بعض الأصوات ضد مبدأ أحادية القوانين الصوتية وكليتها، وقد برزت اعتراضات عديدة متعلقة بتقبل أسباب التغير اللغوي، منها: أولًا، أن قوى المحافظة اللغوية (التي تُعزى إلى الإنتاجية والقياس مثلًا) هي قوى موازية لسيرورة التغير الصوتي. ثانيًا، أن فكرة التغير تصطدم بالتنوع وكذا بتعقد الظواهر. ثالثًا، تُبيّن الدراسة المتأنية للديناميات اللغوية أنه ينبغي إيلاء الأهمية إلى عوامل أخرى كوجود نواة نحوية ثابتة. رابعًا، لكي نفكر في التطور اللغوي بطريقة أقل ميكانيكية، من المهم أن ننظر باهتمام أكبر إلى العوامل الخارجية كالجانب الحضاري ووجود الكتب السماوية؛ فالكتابة ووجود لغة نموذجية مشتركة لهما أثر كبير في تسكين النظام اللغوي وتثبيته. وبالمثل ينبغي التفكير في المسألة الحساسة المتعلقة بالحدود الجغرافية وعزلة المجتمعات[1].

(1) يُنظَر: بافو، ماري آن وسرفاتي، جورج إليا: النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ترجمة محمد الراضي، ط1: المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2012م، ص52، 53. قد كانت عزلة العرب في فترة الجاهلية عندما كان البدو المنعزلون في جزيرتهم مجردين من أي رسالة تاريخية كبرى، فكانت العربية مقصورة على عرق متجانس تقريبًا، وأما العربية التي تُمثِّلها المادة الضخمة التي بين أيدينا فهي لسان التنوّع العرقي الإسلامي العظيم الذي كان نتيجة للتوسع الإسلامي، وهي تُمثِّل أعظم تجاوز للنسب والمكان الخالصين، يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص384.

المبحث الثاني
القوى الداخلية لمحافظة العربية

إن عزو الصدفة إلى محافظة اللغات السامية وثباتها النسبي ليس سببًا كافيًا لهذه الظاهرة الفريدة من نوعها في تاريخ اللغات، ولن يكون سببًا كافيًا لتفسير بقاء اللغة العربية على شكلها التركيبي منذ سبعة عشر قرنًا، فلا بدّ إذًا من وجود عوامل خارجية ومبادئ داخلية وراء تلك المحافظة(1).

وأحد العوامل الخارجية لتفسير هذه الظاهرة السامية اللافتة للنظر هو وجود الكتب السماوية التي توالى نزولها بتلك اللغات الحضارية، فاستمرارية التغييرات اللغوية وكُليّة وجودها قد طُمست إلى حدّ بعيد بأثر من النصوص المقدسة القديمة، وقد أسهم في ذلك تقاليد الكُتّاب المحافظة على لغة تلك النصوص في كثير من الثقافات السامية، بالإضافة إلى لجوئهم على مدى العصور إلى تقاليد متقادمة في الكتابة، كان لها دور كبير في تشكيل ذاكرة اللغة الخارجية(2).

وتتمثّل الذاكرة الخارجية في التحولات النسقية التي تظهر من خلال تقليد النماذج المشهورة للكُتّاب العظام، فللذاكرة الخارجية أثر كبير في الاحتفاظ بالأساليب الكتابية ذات المعايير النحوية الثابتة والإبقاء على الذوق العام متميّزًا بأعلى حدّ ممكن من التشابه مع الأساليب المشهورة.

وفيما يخص العربية، فإن تاريخها الطويل وارتباطها بالعقيدة الإسلامية هو أحد معالم تشكيل هيبتها اللغوية، فهنالك رقابة مستمرة فرضها علماء اللغة منذ قرون، وهناك توجيه مستمر فرضته ظروفها الخاصة، فالعربية قد ارتبطت بالقرآن الكريم وقد نزل بلسان عربي مبين، ولذلك بقي المسلمون يحتفظون لهذه اللغة بخصائصها وجوهرها حفاظًا على الدين(3).

---

(1) يُنظَر: دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص343.

(2) يُنظَر: المرجع نفسه، ص124، 125.

(3) يُنظَر: أنيس، طرق تنمية ألفاظ اللغة، ص10، 11.

فقد ساعدت قراءة القرآن الكريم على توفير قاعدة أدائية محافظة في الجانب الصوتي، وهو أكثر جوانب اللغة تعرُّضًا للتغيير والانحراف والتشويه، كما ظلّ الأسلوب القرآني دستورًا للأساليب العربية، شعريّة ونثريّة، على مرّ العصور، وقد أسهم ذلك في خلود العربية وعراقتها، فهي تتمتّع بقدر كبير من الثبات نتيجة ارتباط نقل اللغة بالمشافهة والسماع؛ إذ يعمل كلّ جيل على أن يؤدّي اللغة أداء دقيقًا يُماثل أداءِ الجيل السابق عليه أو يُقاربه[1].

وأما اللغات الأخرى فمعظمها لم يتهيّأ لها مثل هذا الارتباط لعدم نزول كتب مقدسة بها، ويكتفي أصحابها بأن يُترجموا إلى لغاتهم النصوص التي يتعبّدون بها، وهم في هذا لا يستشعرون أي حَرَج[2].

فالعربية قد انتشرت عن طريق القرآن الكريم انتشارًا واسعًا كما لم تنتشر أي لغة أخرى من لغات العالم، فهي لكل المسلمين اللغة الوحيدة الجائزة في العبادة، ولهذا السبب تفوّقت العربية تفوّقًا كبيرًا على كل اللغات التي كان يتكلمها المسلمون، وقد أصبحت هي اللغة الأدبية النموذجية التي لها الهيبة وحدها في معظم الأحوال[3].

وهكذا يمكن أن نلحظ أن هنالك عوامل عديدة تضافرت على استمرار صلاح انطباق وصف (اللغة العربية النموذجية) على الإنتاج الأدبي والرسمي عبر العصور حتى عصرنا الحاضر، ومن هذه الظروف: مركزية القرآن الكريم لدين عظيم، وهو الكتاب لم يُحرَّف أو يُعدَّل، والمكانة السامية للشعر عند العرب عبر العصور كلها تقريبًا، ومتطلبات التوسّع الإمبراطوري الذي تلا البعثة المحمدية مباشرة، وعدم وجود أي مركز لغوي مسيطر دائم في الأزمنة المتأخرة، وهو الذي كان يمكن

---

(1) يُنظَر: شاهين، العربية لغة العلوم والتقنية، ص45.

(2) يُنظَر: أنيس، طرق تنمية ألفاظ اللغة، ص10، 11.

(3) يُنظَر: بروكلمان، كارل: فقه اللغات السامية، ترجمة رمضان عبد التواب، ط1: مطبوعات جامعة الرياض، الرياض، 1977م، ص30.

أن ينتج عنه فرض نموذج لغوي قريب من الكلام المحليّ الذي كان يتطوّر في ذلك المركز[1].

ويُضاف إلى هذه العوامل الخارجية وغيرها مبادئ داخلية تُعدّ قوى بارزة للمحافظة على النظام اللغوي العربي وإكسابه السيرورة الدائمة، نذكر منها بشكل أساس: وجود النواة النحوية الثابتة واطراد التراكيب والتجديد القياسي وتعليلية النظام اللغوي. فلكل واحدة من هذه القوى الداخلية أثر كبير في محافظة العربية وإبقائها لغة ممتدة واضحة في الزمان والمكان.

إن تلك المحافظة التي اتصفت بها العربية هي السمة الجوهرية لبقاء سيرورتها التي هي مظهر من مظاهر استقلاليتها وحريتها. فهنالك، بحسب سوسير، مبدآن يحكمان اللغات في مسيرة تقدّمها: أحدهما هو مبدأ الاستمرارية الذي يقتضي الصيرورة والتغير، والآخر هو مبدأ الحرية الذي يقتضي السيرورة والثبات[2].

وقد يُقال إن حرية اللغة تكمن في تطورها وسرعة تغيّرها على نحو ما حدث للغات الأوروبية الحديثة التي لم تعد كما كانت قبل بضعة قرون من الزمن. وقد يكون صحيحًا أنّ من نتاجات الحرية التطور وسرعة التغيّر، ولكن ذلك يصدق على أشياء كثيرة ليس من بينها اللغات وأنظمتها، فهنالك فرق بين الحرية والتحرر أو الفوضى في المجال اللغوي، فحرية النظام اللغوي ترتبط بثباته واستقلاله عن المتغيرات الطارئة أو العشوائية، والتحرر هو سمة من سمات الانفلات والفوضى التي تُضعف النظام اللغوي وتُقسِّمه عبر الزمن إلى حالات تقل معها سهولة التواصل.

فقياسُ حرية اللغات في بعض جوانبه يقوم على استقلال النظام اللغوي وقوته في مواجهة الزمن، فاستقلاله وقوته تكون في ثباته ومحافظته على كيانه الأصيل. فحرية اللغة إذًا تكون في استقلال نظامها وسيرها المتقدِّم دون تغيّر أو تحوّل، وهو ما يُعطي المعنى الدقيق لمفهوم السيرورة المتعلق بالتقدّم دون انقطاع عن

(1) يُنظَر: جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص18.

(2) يُنظَر: دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص124، 125.

الشكل القديم. بينما يتعلّق مفهوم (الصيرورة) بالتقدم المرتبط بالتغير والتحوّل عن الأشكال القديمة للنظام. وهكذا يُشير مبدأ السيرورة إلى مسار تطوري ثابت دون حدوث تحول إلى شكل جديد، فمفهوم السيرورة يُشير إلى التقدّم المنتظم لنواة اللغة الثابتة، وبالتالي فنحن إزاء مفهوم تطوري يحتكم إلى شكل الحركة ومسارها دون لمس بنيتها[1].

وقيامُ مبدأ السيرورة اللغوية لا يكون جزافًا أو كيفما اتفق، وإنما تحكمه قُوى نظامية يمكن تسميتها بـ(قوى المحافظة الداخلية)، فهي تُحافظ على كيان اللغة من فوضى التغيير والاختلاط، بل إن لها أثرًا كبيرًا في سهولة النظام اللغوي وقوة اشتغاله ووضوحه، ويمكن الإشارة إليها على النحو الآتي:

1. النواة النحوية الثابتة:

إن التراكيب العامة الأساسية للنحو، أو ما يمكن أن يُطلق عليه (النواة النحوية) الثابتة، مردُّها الرئيس إلى أكثر استعمالات اللغة بدائية، فهي تُهيمن على مرحلة النشأة وعلى أكثر المراحل مرونة في التطور اللغوي مُخلِّفةً أقوى بصمات الذاكرة اللسانية التي تُعطي اللغة ديمومتها وعراقتها[2].

ويعود سبب مقاومة النواة النحوية للتغيير إلى قِدَم الشكل التركيبي الثابت، فالتركيب النحوي في كثير من اللغات غالبًا ما يكون ثابتًا جزئيًّا، وتعود التمثلات التي يُحجِّرها إلى مجتمعات في مراحلها البدائية[3].

---

(1) يُنظَر: كيلة، سلامة، عن السيرورة والصيرورة، مجلة رمان، "استرجعت بتاريخ 2017/2/3م من موقع": https://2u.pw/cxkiIqmG.

(2) يُنظَر: أوغدن، تشارلز كي وريتشاردز، آنفر آرمسترونغ: معنى المعنى (دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية)، ترجمة كيان أحمد حازم يحيى، ط1: دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، 2015م، ص491، 492.

(3) يُنظَر: حجاج، كلود: إنسان الكلام (مساهمة لسانية في العلوم الإنسانية)، ترجمة رضوان ظاظا، ط1: المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2003م، ص355، 356.

ولا يُفهم من نعتها بالبدائية ما قد يتبادر إلى الذهن من معنى القصور وعدم النضج، وإنما يُقصد بذلك ما يكون عليه النظام اللغوي في أصل بنيته من النقاء والبساطة والانتظام، وهذا ما يظهر في بنية اللغة العربية المشتركة التي امتازت بوحدة طريقتها في تكوين الجملة وتقليل الأنماط التركيبية المتنافسة، وهو ما جعلها على درجة من الانتظام والوضوح أعلى منهما في اللغات السامية الأخرى(1).

فأيّ فعل لساني يزيد من وحدة التراكيب النحوية ويطرح جانبًا القواعد المتنافسة التي تؤدي الغرض نفسه، فإنه يُسهم في الوضوح العام للنظام اللغوي، ويعني ذلك، قبل أي شيء، استبدال الاحتمالات والخيارات المتنافسة، ما كان ذلك ممكنًا، بنواة نحوية منتظمة وثابتة(2).

ولا يقتصر الانتظام على نواة الجملة فحسب، وإنما يظهر كذلك في التركيبات المتنوعة، فالترتيب ثابت فيها غالبًا؛ إذ لا يمكن في العربية إطلاقًا أن نُغيّر مثلًا الترتيب بين المنعوت والنعت أو المضاف والمضاف إليه، ولا يعني ذلك أنه صارم تمامًا، فالعربية كما يرى برجشتراسر متوسطة بين نوعي اللغات التي تعتمد التقييد أو الاختيار في ترتيب الكلمات، فقد قُيّد فيها ترتيب الكلمات في كثير من الحالات، وهو اختياري في بعضها. ولكن قواعد ترتيب تراكيب العربية قاسية غالبًا، فهي أشد اللغات السامية تقييدًا لترتيب الكلمات، فالعربية تبعًا لطبيعتها أكثرت من قواعد الترتيب وأقستها(3).

وليس في هذه القسوة أو الصرامة ما يعيب بنية العربية، فهي تُشكِّل نمطًا ذا طابع متماسك يُعطي وضوحًا تامًّا للبنية، والأمر بخلاف ذلك لو كانت بنيتها ذات نمط تركيبي متراخ أو متسيّب؛ إذ ستكثر هنا الخيارات التي تزيد عن الحاجة، وهذا يُمثِّل في الواقع عقبة كبيرة؛ إذ إن تعدد الإمكانات اللغوية المسموح بها لا

(1) يُنظَر: بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص29.

(2) يُنظَر: ليكوك، دونالد وموليسلر، بيتر: هندسة اللغة (لغات خاصة)، ترجمة محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب (الموسوعة اللغوية)، المجلد الثالث (بعض المظاهر الخاصة باللغة)، ط1، جامعة الملك سعود، الرياض، 1421هـ، ص846.

(3) يُنظَر: برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ص134.

يُساعد مطلقًا على سرعة التواصل، فكل تنوّع يفترض اختيارًا، والقيام بجهد غير ضروري تبعًا لذلك(1).

وهكذا فقد ورثت العربية رصيدها الغني على مستوى النحو تحديدًا، وهو الذي يتميَّز بكونه مُحكمًا، وأما وسمه بالصرامة أو القسوة، إنْ كان ذلك صحيحًا، فهي فكرة مختصرة وممتازة، ويمكن أن تُعدَّ في صالح العربية: فهل ستكون العربية أحسن حالًا لو كانت تمتلك نحوًا مُتسيِّبًا أو متراخيًا؟! ولنأخذ الترتيب الصارم بين (النعت) و(المنعوت)؛ إذ لا يمكن في العربية إطلاقًا أن نُغيِّر الترتيب بينهما: (المنعوت + النعت)، حتى وإن كان ذلك من أجل التوكيد كما يحدث في الفرنسية مثلًا. لكن هذا الترتيب لا يُشعر بأنه صارم، بل هو سهل على السامع، ولا يوجب على المتكلم أن يختار بين احتمالات لا حاجة لها(2). فرغبة فتح باب الاختيار واسعًا بين مكونات التركيب لا تعدو أن تكون سرابًا حين نتخيل أن المتكلم يستطيع أن يقذف بكلماته عشوائيًّا، فسعةُ الاختيار وورود الاحتمالات الكثيرة عادة ما ينتج عنهما توتّر بنيوي كبير(3).

وقد ساعد العربية في المحافظة على وحدة طريقتها في تكوين الجمل، وهي سمة تبسيطية من السمات الأصيلة للغات السامية، هو وجود وسائط التخصيص والتعيين الغنية بها(4)، وكذلك استقامة تركيبها القائم على وضع الأدوات التي تُغيّر معنى الجملة في البداية، ولأن اتجاه الجملة يُغيَّر تغييرًا عنيفًا نتيجة للنفي أو الاستفهام، فأكثر البنى استقامة هي أن تجعل هذه الأدوات خارج نواة الجملة، وذلك ما يضع المستمع على طريق الفهم الصحيح منذ البداية، لذلك تظهر أدوات الاستفهام كلها قبل الكلمات التي يمكن تقديمها، كما تظهر أدوات النفي قبل المقولات التي تنفيها. وإذا ما وُضعت أدوات الاستفهام أو النفي في صدر الجملة، فإنها تُسهم بدلالتها من غير أن تتعمق داخل المكونات الأخرى للجملة

(1) يُنظَر: جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص283.

(2) يُنظَر: المرجع السابق، ص61، 388.

(3) يُنظَر: المرجع نفسه، ص384، 385.

(4) يُنظَر: برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ص135.

لتحدث تغييرًا في نواتها الشكلية ووحدة تكوينها، وهو ما يعني المحافظة على نواة الجملة ثابتة كما هي(1).

وليس كذلك الحال مثلًا في الجمل الملمعة cataphoric دلاليًّا في اللغة الألمانية، وهي تلك الجمل التي تُؤخَّر فيها الأدوات التي تصحب الأفعال، ويُمكن فصلها عنها إلى نهاية العبارة، ولأن معنى الفعل ربما لا يكون حصيلة جمع معنى الجذع ومعنى السابقة، فإن معنى الجملة ربما لا يجمد حتى نهايتها، ولا يعني ذلك أن المعنى لم ينته ببساطة من حيث التفاصيل، بل أن تظل الأهمية المركزية للجملة معلقة حتى يصل السامع إلى تلك الأداة. وربما يبقى نوع من عدم الوثوق حتى حين لا يكون هناك انشطار في التركيب وعدم وضوح(2).

ويرى بعض اللسانيين أن العربية المعاصرة قد تخلت عن السمة السامية للبساطة التركيبية، فهم يرون أن العربية المعاصرة، وهي متأثرة في بعض جوانب تطورها باللغات الأوروبية! تُبِين عن توجه قوي نحو الجمل الطويلة المعقدة أكثر مما يظهر في سلفها القديم، فالعربية المعاصرة لم تُحافظ على الصبغة السامية للجمل البسيطة. ثم يُرجعون بعض البنى غير المفككة المفضلة في الوقت الحاضر، إلى الأثر الأوروبي! وليس هذا فحسب، فهنالك من يرى أن العربية المعاصرة قد تغيرت في المستويات الدلالية والتركيبية والأسلوبية بصورة طبيعية باتجاه المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي الحديث؛ نتيجة لانجذاب العرب إلى المجال الأوروبي(3).

وقد يحصل هذا في المستوى الأسلوبي مع انتفاء الأسباب التي قد تدعو إليه، فحياة العربية الباقية وسيرورتها الممتدة لا تتعلّق بثبات تراكيبها وبنيتها النحوية فحسب، وإنما تتعلّق أيضًا بحيوية أساليبها وجانبها الفني والإبداعي، فثوابت الأسلوب ليست كثوابت النحو لكونها غير ملزمة، ولكنها إن وُجدت في الكلام وَجدتَ له ريح العربية ومذاقها، فالأسلوب لا يخلو من سمات شخصية وإنْ خلا

---

(1) يُنظَر: جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص393.

(2) يُنظَر: المرجع نفسه، ص386.

(3) يُنظَر: المرجع نفسه، ص155، 156.

من العراقة اللغوية أحيانًا، ويعني هذا أن في العربية سمات جمالية تُبعدها عن التخلّف في مجال الإبداع[1].

وفي الحقيقة إن مظاهر تعقيد التركيب الأوروبي الحديث لا يجعل منه نموذجًا يُحتذى، فاحتواء بعض اللغات الأوروبية الحديثة على مظاهر عالية للتعقيد لا يجعل منها لغة نموذجية أو مثالية بقدر ما يخلق منها شيئًا يُشبه خليطًا غير متجانس. فاللغة إن كانت مرنةً خفيفةً مقتصرةً على الحدّ الأدنى من الخصائص التركيبية فإنها تسمح للفكرة بالظهور في وضوح تام وتُتيح لها حرية الحركة، بخلاف اللغات المثقلة بالخصائص التركيبية فإنها تخنق الفكرة[2]. وصحيح أننا قد نجد جملاً طويلة في العربية، لكن هذه الجمل غير متداخلة، وندرة الجمل الطويلة المتداخلة بشكل عام يكاد يكون عامًا[3].

وهكذا فإن القول بوجود نواة نحوية ثابتة ينفي عن اللغات العريقة تلك المقولة التي تعد تلك اللغات من آثار التعقيد وعدم الانتظام، فسيرورتها اللغوية الدائمة تجعلها تميل بوضوح نحو الانتظام، وهو ما يؤكد أن اللغات التي تُسمَّى لغات قديمة قد شهدت في الأساس قدرًا كبيرًا مما يمكن أن نطلق عليه اسم الإصلاحات التنظيمية. ولدينا انطباع واضح بأن ممارسات التواصل قد اتجهت على مرّ العصور إلى تقنين بعض الأشكال اللغوية غير المنتظمة[4].

وبما أن اللغات هي تراكيب بالغة التعقيد، وبما أن هناك عوامل جديدة تؤثّر في اللغة باستمرار مع تطور الحياة، فإن نظام اللغة يحتاج إلى نواة ثابتة تحفظ كيان

---

(1) يُنظَر: عيّاد، اللغة والإبداع، ص99. ليس بالإمكان القيام بعزل الأسلوب من أجل أن نكشف عن تركيب اللغة (غير الموسوم)، ولهذا ليس بإمكاننا أن نقول إلا ما قاله نولدكه: "من الممكن نظريًّا فصل علم الأسلوب عن دراسة القواعد، لكن ذلك غير ممكن عمليًّا"، يُنظَر: جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص21.

(2) يُنظَر: فندريس، اللغة، ص302.

(3) يُنظَر: جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص401.

(4) يُنظَر: لويس، جون كالفيه: إيكولوجيا لغات العالم، ترجمة باتسي جمال الدين، ط1: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004م، ص36، 37.

اللغة، فاستمرار التغير اللغوي دون توقف قد يؤذن بالفوضى والخراب(1)؛ فمن طبيعة التغير اللغوي إيجاد تباين نحوي، وما إنْ يكون التغير اللغوي حقيقة واقعة حتى يظن المرء بأنه سينتهي به المطاف إلى تغيير كيان اللغة واستبداله، لكن الخاصية التركيبية للغة بشكل عام تبقى ثابتة تقريبًا، فالتبدلات الصوتية قلّما تُؤثِّر على النواة النحوية الثابتة(2)؛ بل إن النواة النحوية الثابتة تبدو وكأنها تُوجِّه التطور اللغوي ليسير بطريقة محافظة وهادفة لتتكيف اللغة على نحو متأنّ مع التغيرات حتى لا يحدث تخريب كامل للنظام وتُساعد كذلك في تسهيل الإدراك والإفهام(3).

فهنالك ظواهر متنوعة تُقلِّل من تأثير الخراب الصوتي على الإدراك السمعي، ومثال ذلك ظاهرة (إعادة الإنشاء الصوتي) بواسطة البنية النحوية الثابتة: فالكلمة التي تُصاب بخراب صوتي أو يحل في داخلها صوت غير لساني محل صوت لساني، هي كلمة يُنظر إليها عمومًا بوصفها سليمة، وإنها لتشير بأن التراكيب النحوية الثابتة تضطلع بدور مهم في الإدراك، وأن السامع يستعمل البنية النحوية لكي يُعيد تكوين المعلومات الصوتية الناقصة أو المشوشة(4).

فالتشويش، على خلاف ما يراه بعض اللسانيين، لا يقع في جوهر اللغة وكيانها المتمثِّل بنواتها النحوية، فالنواة النحوية هي التي تُعيد التماسك الدلالي بإعادة تكوين الملامح الصوتية المقنَّعة بالتشويش والضوضاء، فهي تراكيب تُعبِّر عنها قواعد هي في جوهرها ثابتة ومنتظمة. فنحن نواجه التشويش وعدم الإحكام على درجات متفاوتة لمستويات البنيان اللساني، ولا غرو أن التراكيب النحوية هي الأقل تشويشًا، وفي ذلك يكمن حفظها وضمانها لكيان اللسان. فالتشويش، بفضل النواة النحوية الثابتة، ليس أساسًا تكوينيًّا في طبيعة اللغة.

(1) يُنظَر: سامسون، مدارس اللسانيات، ص115، 116.

(2) يُنظَر: المرجع نفسه، ص263.

(3) يُنظَر: كلر، جوناثان: فرديناند دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات)، ترجمة عز الدين إسماعيل، ط1: المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2000م، ص124، 125.

(4) يُنظَر: ديكرو أوزوالد وسشايفر جان ماري: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة منذر عياشي، ط1: المركز الثقافي العربي، بيروت، 2003م، ص448.

وهذا ما يُتيح الفرصة لنفهم لماذا تكون التراكيب النحوية موسومة عادة بالإحكام وعدم التسرب: إن جانبًا من هذا الفهم يعود إلى أهمية التراكيب النحوية الفاعلة في حفظ كيان اللغة. فهي تمنع التغير اللغوي من إحداث التخريب العام والإخلال بالنظام، كأنْ يحلّ نظام ثوري محل نظام آخر، فهي تجعل التخريب جزئيًّا وليس كارثة طاحنة.

2. الاطراد التركيبي:

تُقترَح هنا صورة (الذاكرة – الغربال) الشديدة الوضوح لتفسير المحافظة اللغوية، وبحسب هذه الصورة فإن التراكيب التي يطرد استعمالها، هي وحدها التي تنتهي بالمرور من غربال الذاكرة القصيرة المدى لتدخل في الذاكرة البعيدة المدى. هذا المسار يُفسِّر مباشرة لماذا لا تُشوِّش التراكيب الشاذة على سيرورة اللغة، فهي لقلة تواترها نسبيًّا لا تتمكن من المرور من الغربال(1).

وهنالك أيضًا تفسير بسيط لهذا الأمر، وهو أنه لما كان يلزم أن تُحفظ الصيغ الشاذة في الذاكرة قصيرة المدى التي كثيرًا ما تفشل في ذلك، فإنه كلما حاول المتكلم استحضار الصيغة الشاذة، فإن القاعدة المطردة تهبّ لملء الفراغ. فإذا لم يستطع المتكلم أن يأتي بالصيغة الشاذة فإن القاعدة المطردة تُطبَّق بوصفها آخر وسيلة. ونحن نعلم أن فشل ذاكرة المتكلمين هو السبب في ذلك؛ إذ تبدو الأنماط الشاذة التي يقل تكرارها ولا يتذكرها الناس إلا قليلًا غريبة على الأُذن، وأكثر الاحتمال أنها ستتحوّل إلى صيغ مطردة. ولما كنّا قد نسينا الصيغ الشاذة، فإننا لا نتردد في أن نعلن أن الصيغ المطردة ليست أخطاء، والواقع أن كثيرًا من هذه التحولات أصبحت على مرّ القرون ثابتة(2).

(1) يُنظَر: فاندولواز، كلود: استقلال اللغة والعرفان، ضمن كتاب: إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين، ترجمة ثامر الغزي، ط1: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، تونس، 2012م، ص366 – 368.

(2) يُنظَر: بنكر، الغريزة اللغوية (كيف يبدع العقل اللغة؟)، ص348 – 352.

ولكن أين تقع الأشكال المطردة؟ يرتبط الجواب بصورة (الكنز) في تشبيه سوسير؛ أي مجموع الأشكال والوحدات التي يمتلكها اللسان، والتي يستقي منها الفرد ليتكلّم. فهنا يُوسِّع سوسير التمييز بين (اللسان) و(الكلام) مستخدمًا صورة مدهشة هي صورة (الكنز)؛ يقول سوسير: "إذا كان صحيحًا أننا بحاجة دائمًا إلى كنز اللسان للتكلم، فعلى العكس من ذلك، كل ما يدخل في اللسان سَبَق أن جُرِّب أولًا في الكلام عددًا من المرات لكي ينتج منه أثرٌ دائم، فليس اللسان سوى تكريس لما سبق ذكره في الكلام". فاللسان يسمح بالكلام، والكلام بدوره يُغذِّي اللسان. و(التكرار) هو الذي يجعل الوحدات تستقر في اللسان، وتتكرّس فيه، مُشكِّلة بذلك نوعًا من (الكنز)[1].

في البداية يُعدّ كنز اللسان بمثابة خزّان الأشكال المطردة، ويُوصَف هذا الخزّان أيضًا على أنه (مُستودَع): مستودع الأشكال المطردة. لا بل يُوصف على أنه مخزن تعمل فيه الذاكرة، فهو الكنز الداخلي، الذي هو بمثابة خزان الذاكرة، هذا ما يمكن أن يُسمَّى بالمستودَع. في هذا المستودع يوضع كل ما يمكن أن يُستعمَل بشكل ثابت ومطرد[2].

وهكذا يتبيّن أن سيرورة اللغة لا تتطلب القدرة على توليد الجمل فحسب، وإنما أيضًا وفي الآن ذاته تفعيلًا للذاكرة اللسانية التي تحتفظ بالأشكال المطردة التي تمتلك قدرة إنتاجية على توليد أنماط جديدة من أشكال قديمة. ولذا فإن قواعد النحو تتكرر وتقوم بتوليد عدد هائل من الجمل، ولا تستدعي سمة الإنتاجية إحداث وضع جديد للنظام النحوي.

وأي مقارنة للغةٍ أوروبية بالعربية فيما يخص العبء المفروض على ذاكرة المتكلمين فلن تكون في صالح الأولى، فالعربية تقع على الطرف الأقصى من خط الاطراد، وهو ما يُجيز تسميتها بلغة الذاكرة. فهي تمتلك ذاكرة لسانية لا تُقاربها

(1) يُنظَر: دوبيكير، لويك: فهم فرديناند دو سوسور وفقًا لمخطوطاته (مفاهيم فكرية في تطور اللسانيات)، ترجمة ريما بركة، ط1: المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2015م، ص204 - 206.

(2) يُنظَر: المرجع السابق، ص206، 207.

أي ذاكرة لسانية أخرى من حيث الطول والمدى. وهكذا يسهل التعامل مع العربية من حيث الصرف والتركيب على المهتم بالاطراد أكثر من سهولتها على المهتم بالشذوذ بقدر يفوق اللغة الإنجليزية واللغات القريبة منها. وهذا عامل، كما يقول المستشرق الفرنسي دي ساسي (1758 – 1838م)، قد يبدو لأول وهلة عنصر صعوبة في تعلّم اللغة إلا أنه في الواقع عامل من شأنه أن يجعلها أكثر وضوحًا وسهولة. فوجود القدرة على التنبؤ بتراكيب العربية يشي بمرونة نحوها، وينفي عنه صفة الصرامة المدَّعاة، والصفة التي تُناسبه هي صفة الاطراد والانتظام، وهي صفة ملازمة للتماسك والوضوح[1].

ومن عجائب الأمور أن تجد في وقتنا المعاصر مَن يقول: "إن لغتنا العربية كثيرة القواعد والشذوذات ... وهي تحتاج من الوقت لتعلُّمها نحو ثمانية أو عشرة أمثال الوقت الذي تحتاجه اللغة الإنجليزية، فيجب أن نتّجه نحو تيسيرها بالإقلال من القواعد والشذوذات، بل ومن الكلمات"[2].

فهذا القول وأشباهه بعيد عن الصواب، ولا يقوم على أي مستند علمي أو تعليمي دقيق، فمن ينظر في خصائص العربية التركيبية نظرة تمعّن وإنصاف يجد أن لها من سمات السهولة والوضوح ما يدحض كل ادّعاء يقول بصعوبتها أو تعقيدها. وللأسف فقد أصبحت هذه الأقوال الشعبية، التي تُلقَى جُزافًا أو كيفما اتّفق، شائعات يُصدِّقها القريب والبعيد. فهنالك تنكّر واضح لتقنيات التحليل اللساني والوقوف على صدق تلك المزاعم من كذبها.

ومهما يكن من أمر، فإن تقنيات التحليل اللساني تُظهر لنا أنه لا ينتج عن التراكيب في العربية أشكال شاذة ومعقَّدة جدًّا أو غير سائغة، وذلك لغلبة تقنية الاطراد التي يسهل التنبؤ بما تقوم به، وهي التي تنتج عنها الجمل الأساسية

(1) يُنظَر: جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص38.

(2) موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، ص183.

التامة، ويمكن أن يأتي بعد هذه النواة عدد من عمليات التحويل القائمة على الحذف والإضافة[1].

وهكذا فإن محافظة البنية النحوية للعربية لا تكون بأي شكل من الأشكال مظهرًا لتعقيدها، فالتعقيد يحدّ من اشتغال النظام النحوي بينما تُعطي محافظة البنية واطرادها مرونة عالية للاشتغال، فمرونة هذا النظام تُتيح لنا أن نقوم بصياغة جمل جديدة بحرية تامة: فبينما نجد أن قواعد النحو ثابتة ومحدودة في ذاتها إلا أنها لا نهائية وغير محدودة في اشتغالها، وهو ما يُعطيها سمة الإنتاجية[2].

3. التجديد القياسي:

من أجل فهم تواصل الألسنة وتغيرها عبر الزمن، يجب أن نتفحّص على الأقل عاملين أساسيين هما: القياس اللغوي والتغيرات الصوتية. فالقياس يدل على تكوين الأشكال الجديدة عبر تقريب الأشكال السابقة من بعضها بعضًا. وهي عملية يرى سوسير أنها تتم على المستوى الفكري، فظاهرة القياس لديه هي ظاهرة التغير الذكي. ويختصر سوسير ذلك بقوله: "إن التواصل المطلق للسان عبر الزمن" يتوافق مع "التغير المتواصل للسان عبر الزمن". وهذا الأخير متعلق بعاملين مختلفين: أحدهما نفسي يتمحور حول عملية القياس، والآخر لا إرادي ووظائفي يظهر في التغيرات الصوتية[3].

ولكي نُميِّز بين التغيرات الصوتية وسيرورة القياس، ينبغي أن تقوم المعاينة على لحظ التباعدات التي بإمكاننا تسجيلها بين الاستعمالات المتتابعة ومدى انحرافها عن الأصل الأول القديم. هذا الإجراء يدعنا، بلا ريب، نفترض بتاريخ سابق: إما سيرورة محافظة لنظام اللغة أو تطورات تباعدية له. فحيثما لا تُثير

(1) يُنظَر: جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص26.

(2) يُنظَر: تشومسكي، نعوم: اللسانيات الديكارتية – فصل في تاريخ الفكر العقلاني، ترجمة حمزة قبلان المزيني، ط1: دار كنوز المعرفة، عمّان، 2022، ص39 - 42.

(3) يُنظَر: دوبيكير، فهم فرديناند دو سوسور وفقًا لمخطوطاته، ص76.

الأطوار المتتابعة شكًّا في تحوّلها وتباعدها، فإنه لا يمكن للمُلاحِظ أن يتجنَّب اعتبار التباعدات المسجلة بمثابة خراب نطقي أكثر من كونها معالم لسيرورة متطورة انطلاقًا من لسان محافظ أكثر عراقة. ولذلك ليس لنا الحق أن نرى في الانحراف المسجل مظهرًا لاستمرارية تغيرية جارية إلا عندما نكون على ثقة بأنه ليس بقية لشكل قديم بل هو تجديد وتحوّل عن الشكل القديم(1).

ويُشير سوسير إلى أن التغير القياسي هو أحد أسباب التغيرات المحافظة، فهو يختلف عن التغيرات الصوتية في كونه ليس سببًا لا إراديًّا بالكامل، فالتغير القياسي يأخذ بعين الاعتبار العمليات الذكية التي تجري في التغيرات، والتي يمكن أن نرى فيها هدفًا ومعنى، ومن أهدافها المحافظةُ على كيان اللغة ونظامها من الفوضى أو الانهيار الذي تُحدثه التغيرات الصوتية(2).

وهكذا يكتسي القياس الذي يجعل الأشكال ترتبط ببعضها بعضًا أهمية أساسية عند سوسير وعند عدد من اللسانيين في عصره: فهو يُفسِّر بشكل خاص تواصل الألسنة ومحافظتها عبر الزمن؛ إذ إنه يُعوِّض عن التآكل الصوتي الذي يُغيّر الأشكال؛ يقول سوسير: "وهكذا فإن التجديد القياسي ... لا يقوم سوى بمتابعة سلسلة العناصر المنقولة منذ منشأ الألسنة من دون أن يتمكن من كسرها". فما يمكن اكتشافه من خلال دراسة الألسنة ليس أصلًا افتراضيًّا، وإنما سلسلة تطورات، وهذه التطورات هي إما صوتية بشكل أساسي، وإما تكوينات قياسية يتطابق بعضها مع بعض، يقول سوسير: "إن لسانًا معينًا في وقت معيّن ليس سوى تداخل ضخم لتكوينات قياسية، يكون بعضها جديدًا تمامًا، وبعضها الآخر يعود بعيدًا جدًا في الزمن بحيث لا يمكن كشفه"(3).

إن ملاحظة سمة هذه الظاهرة تجعلنا ندرك بأنها ليست بتغير وإنما هي تكوين، ولذلك يُطلق عليها سوسير أحيانًا اسم (التكوينات القياسية). فكل

---

(1) يُنظَر: ديكرو أوزوالد وسشايفر جان ماري، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ص306.

(2) يُنظَر: دوبيكير، فهم فرديناند دو سوسور وفقًا لمخطوطاته، ص75.

(3) يُنظَر: المرجع نفسه، ص76، 77.

عناصرها موجودة ومحددة في أشكال مهيّأة في ذاكرة اللغة التي هي أطول أمدًا من ذاكرة الناطقين بها، وبالتالي لن يكون هناك أبدًا أي تكوين من العدم، بل لن يكون هناك ابتكار إلا بتطبيق جديد لعناصر تُقدِّمها الحالة السابقة للغة، فهي عملية محافظة يُطلق عليها سوسير اسم التقميش (الترقيع)، فالاعتماد دائمًا ما يكون على القماش نفسه.

ويتطرّق سوسير مرارًا إلى أهمية القياس في حفظ الألسنة، فيقول: "إذا ما نظرنا إلى تفاصيل تاريخ كل لسان لوجدنا أنه ليس سوى عدد كبير من الظواهر القياسية المتراكمة الواحدة فوق الأخرى". وذلك مثل القماش: "على القياس أن يعمل دومًا على القماش نفسه"، وهو بالتالي يملك دورًا محافظًا. ويتابع سوسير استعمال الصورة البيانية نفسها، فيُضيف أن اللسان ثوب مصنوع من ترقيعات[1].

إن التجديد القياسي الذي يهدف إلى جعل تعبير العلاقات القاعدية متشابهًا، عادة ما يُصلِح الخراب الذي أنتجته القوانين الصوتية عَرَضًا[2]. وعلاقات التشابه تظهر على المستوى الصرفي والمستوى النحوي، وهي بمثابة قوالب إنتاجية ثابتة تُشكل قوى محافظة تسير متوازية مع قوى التآكل الصوتي وتتغلّب عليها، فهي تُشكِّل قوى تحفظ للنظام اللغوي توازنه بالحد من الخراب الذي تُحدثه قوى التآكل الصوتي. ولهذا فإن لها أثرًا كبيرًا في بناء الذاكرة الداخلية للغة وصقلها.

إن (اللغة) في الجوهر ذاكرة، وهذا التماثل بين الذاكرة واللغة بالذات يمكن تقديمه بطريقتين: حفظ الماضي في الحاضر ومراكمته، أو أن الحاضر ينطوي بشكل واضح على صورة الماضي التي لا تنفك تكبر[3]. إن الذاكرة إذًا هي التي تجعل من اللغة شيئًا غير آني، وتعطيها امتدادًا في الزمن[4].

(1) يُنظَر: دوبيكير، فهم فرديناند دو سوسور وفقًا لمخطوطاته، ص77.

(2) يُنظَر: ديكرو وسشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ص306.

(3) يُنظَر: دولوز، جيل: البرغسونية، تعريب أسامة الحاج، ط1: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1997م، ص53.

(4) يُنظَر: المرجع نفسه، ص22.

وتظهر تمثّلات الذاكرة الداخلية في التحولات النسقية للقياس التجديدي الذي يُلبّي الحاجة الوظيفية المستجدة، حيث يؤدي القياس التجديدي إلى الابتكار الحقيقي لوحدات لغوية جديدة من وحدات سابقة ذات سمات شكلية متشابهة، فالتحولات النسقية تميل إلى عدم استقطاب الأنماط غير المتشابهة. فلذاكرة اللغة الداخلية، وهي ذاكرة محافظة، أثر في الاحتفاظ بالتراكيب المتشابهة. وما تقوم به التجديدات القياسية من إنتاج علاقات قاعدية متشابهة داخل النظام اللغوي يُسهم بشكل كبير في صنع تلك الذاكرة طويلة المدى. وهذه الذاكرة الداخلية لا تنفصل عن ذاكرة المتكلمين، ففي تماثل التراكيب وتشابه أوزان المفردات وقدرتهما الإنتاجية المتكررة تخفيف على ذاكرة المتكلمين.

4. تعليلية النظام التركيبي:

بالرغم من أن سوسير هو القائل بمبدأ الاعتباطية والمنظِّر الكبير له، إلا أنه قد وجد اختلافًا في مستويات الاعتباطية ودرجاتها، فهي على الجانب المعجمي اعتباطية مطلقة (عشوائية) وعلى الجانب التركيبي اعتباطية نسبية (مُعلَّلة)، ولهذا فقد اقترح إطلاق اسم (مفرداتي) على الاصطلاحات التي تتحكم بها الاعتباطية، واسم (نحوي) على تلك التي تنقاد للتعليل والسببية. فاللغة يحكمها التوتر المستمر القائم بين الاعتباطية التي نجدها في الكلمات المفردة البسيطة، والتعليلية والسببية التي نجدها في الكلمات والإشارات اللغوية المركبة وفي أشباه الجمل، بل في قواعد النحو أيضًا(1).

فالتعليل النسبي يُظهِر علاقتين: علاقة المفهوم بالصورة الإصغائية وهي علاقة اعتباطية، وعلاقة الكلمات فيما بينها وهي علاقة مُبرَّرة. وهكذا، مهما كانت طبيعة الرابط بين الكلمات المختلفة والمبرَّرة، فإنه يجب قبل كل شيء،

---

(1) يُنظَر: لوسركل جان جاك: عنف اللغة، ترجمة محمد بدوي، ط1: المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005م، ص86 -89.

ولربط هذه الوحدات، أن نُرسي علاقتها الداخلية، وإلا لما استطعنا حتى إدراك العلاقة من كلمة إلى أخرى[1].

فهنالك كما يرى سوسير سُلّمية في الاعتباطية: إن مبدأ الاعتباطية الأساسي للدلالة لا يحول دون التمييز في كل لغة من اللغات بين ما هو اعتباطي بصفة جذرية؛ أي غير مُعلَّل، وبين ما هو اعتباطي بصفة نسبية[2].

فالتماسك الذي يربط عناصر النظام النحوي بعضها ببعض هو ما يكوّن الاعتباطية النسبية غير المطلقة التي تتحقق بفعل ما يُسمّيه سوسير بـ(التبرير). فبعض الترابطات بين عناصر النظام تسمح إذًا بإدراك الاعتباطية ليس بكونها مطلقة، وإنما بكونها نسبية. والدليل على ذلك هو أنه إذا كان اللسان فقط عبارة عن وضع كلمات على أشياء لما كان هناك أي صلة بين الكلمات، ولهذا يقول سوسير: "لو كان من الممكن أن يكون لسان ما عبارة عن تسمية أشياء لما كانت المصطلحات المختلفة في هذا اللسان على أي صلة بعضها ببعض، ولبقيت منفصلة عن بعضها بعضًا كالأشياء بحد ذاتها. ومن دون الاعتباطية النسبية التي تصل العناصر المختلفة للسان فيما بينها، لكان اللسان مجرّد لائحة لتسمية أشياء[3].

ويمكننا أن نلاحظ ابتداء من هذا أن نسبة الإشارات غير المبرَّرة والإشارات المبرَّرة نسبيًّا تختلف وفقًا للألسنة وخلال تطوّرها، فدرجات التبرير تظهر نوعًا ما كمعيار لتصنيف الألسنة في سُلَّم الوضوح، فعلى سبيل المثال، تُعطي اللغة الإنجليزية لغير المبرَّر حيِّزًا أكبر مما تُعطيه اللغة الألمانية[4].

وأما العربية فإن حيز التبرير والتعليل الذي يمتلكه نظامها النحوي هو حيّز كبير للغاية؛ يقول بيرك: "وهناك سمة تلفت النظر، هي تلك النزعة المتطرفة إلى

---

(1) يُنظَر: دوبيكير، فهم فرديناند دو سوسور وفقًا لمخطوطاته، ص157، 158.

(2) يُنظَر: بافو وسرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص122، 123.

(3) يُنظَر: دوبيكير، فهم فرديناند دو سوسور وفقًا لمخطوطاته، ص155، 156.

(4) يُنظَر: المرجع نفسه، ص157، 158.

التعليل التي تتسم بها اللغة العربية. أو كما كنتُ سأقول: وضوحها المثير. في حين يغلب على لغات أخرى ما كان يُسمّيه سوسير (عشوائية العلامة اللغوية)، فلا وجود في العربية تقريبًا لسمة العشوائية هذه؛ نظرًا لوضوح اشتقاقاتها، وما يقتضيه منطقها النحوي الصارم"، فالنحو الصارم هو برهان نسبي وتلخيص جميل للترابط الواضح الذي تُقدِّمه عناصر اللسان المتماسكة[1]. فالوضوح هو النتيجة الحتمية لتماسك النظام النحوي، والتماسك هو الذي يجعل اعتباطية النظام النحوي محدودة بسبب ترابط عناصره، فعناصر اللسان التي تُشير إلى بعضها بعضًا من خلال تقابلات متواصلة ومتماسكة هي مُبرَّرة ومُعلَّلة. ويكتب سوسير حول هذا التحديد للاعتباطية الذي يُمارسه النظام: "كل ما يجعل اللسان نظامًا أو جسمًا نحويًّا يستدعي أن يتم تناوله من هذا المنظور، فكل لسان يُشكِّل جسمًا ونظامًا، هذا هو الجانب الذي لا يكون فيه النظام اعتباطيًّا بالكامل، والذي يجب التسليم فيه بوجود برهان نسبي"[2].

هناك إذًا من جهة أولى الألسنة التي تميل إلى تفريق الصلات الممكنة بين الكلمات، وهناك من جهة أخرى الألسنة التي تميل إلى جمعها في شبكة من العلاقات الواضحة والدقيقة، لاجئة إلى التراكيب النحوية التي هي كشبكة مُكوَّنةٌ من حلقات متصلة ببعضها وتتداعى فيها الواحدة مع الأخرى على نحو يمكن تفسيره وتعليله[3].

والعربية هي من صنف الألسنة الثاني، فالجانب البنيوي المحض لها — أي نظامها اللغوي المجرد — يُسهم في وضوحها وسهولتها، فهي من حيث البنية، لغة مطردة ومصقولة بشكل غير معهود، تمتاز بتراكيبها المطردة وبتعليليتها ووضوحها إلى حدّ بعيد[4].

(1) يُنظَر: جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص267.

(2) يُنظَر: دوبيكير، فهم فرديناند دو سوسور وفقًا لمخطوطاته، ص152، 153.

(3) يُنظَر: المرجع نفسه، ص157، 158.

(4) يُنظَر: جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص25، 26.

وقد أدرك سيبويه (ت: 180هـ) قوة تعليل العربية في عبارته المشهورة: "وليس شيء يضطرّون إليه إلا وهم يُحاولون به وجهًا"[1]. وتفضيل ابن جنّي (ت: 392هـ) للعربية على سائر اللغات المعروفة في زمنه له ارتباط وثيق بنظامها التعليلي، فالنحاة قَبْلَه في بحثهم عن علل النحو أقاموا نظامًا عقليًّا محكمًا لبنية العربية، وقد ساعدهم في ذلك صحة ما وقفوا عليه من تتابع تراكيبها وحسن انقيادها وبُعد مراميها. والفكرة التي تنتظم كتاب (الخصائص) كله هي أن جميع الظواهر اللغوية يُمكن تفسيرها بأسباب عقلية ونفسية، وأنَّ هذا المبدأ ينطبق على العربية أكثر من غيرها، فهي لدى ابن جني لغة بالغة الإحكام، ويُفسِّر ذلك بقوله: "إنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما يملك عليّ جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر. فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا رحمهم الله، ومنه ما حذوته على أمثلتهم، فعرفت بتتابعه وانقياده وبُعد مراميه صحة ما وقفوا لتقديمه منه ولطف ما أُسعدوا به وفُرِق لهم عنه"[2].

فإذا علمنا أن النحو العربي نحو مُحكم وأنه نظام تتشابك فيه العلاقات العضوية حتى يصبح بهذا التشابك بنية جامعة مانعة لا يُستطاع نفي شيء منها ولا إضافة شيء إليها، علمنا أن هذا النظام المحكم مُبرَّر ولا يمكن أن يتسم بالتناقض أو بالاعتباطية؛ إذ لو تطرقت إليه العشوائية المطلقة لتعقّدت بنيته وصعب نظامه، وربما لم يصلح للتعليم الحقيقي؛ إذ لو تطرق إليه التناقض ما صلح للتطبيق[3].

ومعظم من درس النحو العربي من غير العرب رأى أن شبكة العلاقات بين قواعد العربية هي قوية البنيان وشديدة الوضوح، وهو ما يُتيح لمستعملها التعبير

---

(1) يُنظَر: سيبويه، عمرو بن عثمان (ت: 180هـ): الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط3: مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م، 32/1.

(2) ابن جني، الخصائص، 47/1؛ عيّاد، اللغة والإبداع، ص117، 119.

(3) يُنظَر: حسّان، تمّام: الأصول: دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، ط1: عالم الكتب، القاهرة، 2000م، ص٥٩.

بها عن أي فكرة على نحو دقيق وبشكل يُميّزها عن الأفكار الأخرى. فالدرس النحوي العربي يتميز بشهادة بعض الدارسين الغربيين باستقصاء وإتقان أكثر شبهًا بالدرس الذي أُنجز في اللغة السنسكريتية منه بما حدث في اللغات الرومانسية، ويعود ذلك إلى مركزية النصوص المقدسة[1].

ونتيجة لذلك كما يقول هـ. جيبر: "يُمكن القول دون تردد إنه كلما كانت شبكة العلاقات بين قواعد اللغة أقوى بناء وأكثر وضوحًا أمكن التعبير في تلك اللغة عن الفكرة بشكل يُميّزها عن الأفكار الأخرى ويُبيّن الفكرة على نحو دقيق"[2]. وهكذا يمكن وصف النحو العربي في أكبر جوانبه بأنه نحو شكلي، وهو ما جعل النحاة يبحثون عن الانتظام في العربية عبر عدة وسائل كالاطراد والقياس والتعليل. فالنحو الشكلي في الواقع هو نظام يكون فيه كل شيء متلازما وكل شيء مُبرَّرا. لذلك نجد حين نحاول أن نبحث عن تفسير لأي ظاهرة أن هذه الظاهرة نفسها مركز يدور حوله النحو بمجمله[3].

وهكذا يمكن فهم ثبات البنية النحوية للغة العربية التي تُشكِّل نظامًا متماسكًا الكل فيه مترابط ولا يمكن لأي تجديد شكلي أن يجد موقعًا له إلا بصعوبة، ما لم يكن متناغمًا مع القواعد العامة للنظام[4].

خاتمة

وبعدُ، فقد جاءت هذه الورقة البحثية لتتناول مفهوم (العراقة اللغوية) لاتصاله على نحو مميز بالعربية، وليكون في ذلك تأسيس له في اللسانيات العربية الحديثة، فقد آن الأوان لإخراج مقولة: (عراقة العربية) من دائرة الممارسات البلاغية وإدخالها في ميدان العلم كمقولة لسانية لها ضوابطها ومعاييرها الدقيقة.

---

(1) يُنظَر: جستس، محاسن العربية في المرآة الغربية، ص19.

(2) يُنظَر: المرجع نفسه، ص82.

(3) يُنظَر: المرجع نفسه، ص568.

(4) يُنظَر: بافو وسرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص100، 101.

فمفهوم (العراقة) يمتلك مقومات لغوية دقيقة تنأى به عن إبهام الأفكار الأسطورية أو الخرافية التي يعتقدها الناطقون تعصُّبًا للغاتهم؛ فهنالك عنصران أساسيان ينبني على اجتماعهما القول بعراقة أي لغة، وهما: الامتداد الزمني الطويل ومحافظة البنية وثباتها، وقد توفّرت العربية على كلا العنصرين على نحو استثنائي؛ لتكون العراقةُ فيها سمةً لسانية أصيلة، فليس هنالك لغة استقرت بنيتها التركيبية لأكثر من سبعة عشر قرنًا.

وقد أسهمت في تلك العراقة اللغوية عوامل بنيوية أطلقتْ عليها الدراسةُ مصطلح (قوى المحافظة)، وهي قوى داخلية تُبيّن أسباب بقاء بنية العربية ثابتة ومستقرة عبر هذا الامتداد الزمني الفسيح، فهي قوام ديمومتها وحيويتها الممتدة على نحو لا مثيل له من بين كل اللغات.

وقد كان لهذه القوى جوانب وظيفية أدّتْ دورًا كبيرًا في وضوح نظام العربية وإحكام بنيتها، فهي من حيث تراكيبها تمتلك نواة نحوية ثابتة تقوم عليها تراكيبها الأساسية التامة، وهو ما يجعل منها لغة مصقولة بشكل غير معهود. وهي بعدُ لغة تمتاز بتراكيبها المطردة إلى حدّ بعيد، وهو ما يُضفي عليها سهولة التنبؤ بطرائق اشتغالها، فلا ينتج عن العربية تراكيب عشوائية أو غير منتظمة. ومن حيث تجديدات بنيتها التركيبية فإنه يسهل التعامل مع العربية على المهتم بالقياس أكثر من سهولتها على المهتم بالشذوذ، وهذا عامل من شأنه أن يجعلها أكثر سهولة أيضًا؛ لما في ذلك من تخفيف على الذاكرة، فجانب كبير من تجديدات العربية هي تكوينات قياسية تقوم على ربط الأشكال الجديدة بأشكالها الأصيلة. وفي ابتعاد نظام العربية عن العشوائية والاعتباطية على المستوى التركيبي جانب واسع من التعليلية والسببية، فبنية العربية القواعدية تتحلّى بشبكة من العلاقات المبرَّرة التي تجعلها قوية التماسك شديدة الوضوح.

وأخيرًا، فإن الدراسة لا تدّعي أنها قد أحاطت بجميع جوانب مقولة (العراقة اللغوية)، فغير جانب (الامتداد) الذي حظي بعنايتها هنالك جانب (الأصالة اللغوية)، وكذلك الشأن في قوى محافظة العربية، فلا شك أن هنالك عوامل أخرى

لم تُحِط بها الدراسة، كما أن باب البحث لا يزال مُشرعًا أمام من يبتغي تناول قوى المحافظة الخارجية وعلاقتها بهيبة العربية اللغوية.

المصادر والمراجع

إفيتش، مليكا: اتجاهات البحث اللساني، ترجمة سعد مصلوح ووفاء فايد، ط1: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000م.

أنيس، إبراهيم: طرق تنمية الألفاظ في اللغة، ط1: مطبعة النهضة الجديدة، القاهرة، 1967م.

أوغدن، تشارلز كي وريتشاردز، آنفر آرمسترونغ: معنى المعنى (دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية)، ترجمة كيان أحمد حازم يحيى، ط1: دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، 2015م.

بافو، ماري آن وسرفاتي، جورج إليا: النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ترجمة محمد الراضي، ط1: المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2012م.

بروكلمان، كارل: فقه اللغات السامية، ترجمة رمضان عبد التواب، ط1: مطبوعات جامعة الرياض، الرياض، 1977م.

بكر، السيد يعقوب: دراسات في فقه اللغة العربية، ط1: مكتبة لبنان، بيروت، 1969م.

بنكر، ستيفن: الغريزة اللغوية (كيف يبدع العقل اللغة؟)، تعريب حمزة قبلان المزيني، ط1: دار المريخ للنشر، الرياض، 2000م.

تشومسكي، نعوم: اللسانيات الديكارتية – فصل في تاريخ الفكر العقلاني، ترجمة حمزة قبلان المزيني، ط1: دار كنوز المعرفة، عمّان، 2022م.

ج. برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، ط2: مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994م.

جستس، ديفيد: محاسن العربية في المرآة الغربية أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوروبية، ترجمة حمزة قبلان المزيني، ط1: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1425هـ.

ابن جني النحوي، أبو الفتح عثمان (ت: 392هـ): الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط4: الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1999م.

حجاج، كلود: إنسان الكلام (مساهمة لسانية في العلوم الإنسانية)، ترجمة رضوان ظاظا، ط1: المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2003م.

حسّان، تمّام: الأصول، دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، ط1: عالم الكتب، القاهرة، 2000م.

دوبيكير، لويك: فهم فرديناند دو سوسور وفقًا لمخطوطاته (مفاهيم فكرية في تطور اللسانيات)، ترجمة ريما بركة، ط1: المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2015م.

دو سوان، أبرام: كلمات العالم (منظومة اللغات الكونية)، ترجمة صديق محمد جوهر، ط1: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2011م.

دولوز، جيل: البرغسونية، تعريب أسامة الحاج، ط1: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1997م.

دي سوسير فردينان: دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، ط1: الدار العربية للكتاب، تونس، 1985م.

ديكرو أوزوالد، وسشايفر جان ماري: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة منذر عياشي، ط1: المركز الثقافي العربي، بيروت، 2003م.

ديكسون، روبرت وليم: هل بعض اللغات أفضل من بعض؟، ترجمة حمزة قبلان المزيني، ط1: دار كنوز المعرفة، عمّان، 2018م.

روبنز، روبرت هنري: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ترجمة أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة (227)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997م.

سامسون، جفري: مدارس اللسانيات (التسابق والتطور)، ترجمة محمد زياد كبة، ط1: جامعة الملك سعود، الرياض، 1417هـ.

سيبويه، عمرو بن عثمان (ت: 180هـ): الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط3: مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م.

شاهين، عبد الصبور: العربية لغة العلوم والتقنية، ط1: دار الاعتصام، القاهرة، 1983م.

عيّاد، شكري محمد: اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي، ط1: انترناتيونال، القاهرة، 1988م.

ابن فارس، أحمد القزويني (ت: 395هـ): معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ط1: دار الفكر، القاهرة، 1979م.

فاندولواز، كلود: استقلال اللغة والعرفان، ضمن كتاب: إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين، ترجمة ثامر الغزي، ط1: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، تونس، 2012م.

فندريس، جوزيف: اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، ط1: المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014م.

فيشر، فولف ديترش: اللغة العربية في إطار اللغات السامية، حوليات الجامعة التونسية 23، 1984م.

كلر، جوناثان: فرديناند دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات)، ترجمة عز الدين إسماعيل، ط1: المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2000م.

كيلة، سلامة: عن السيرورة والصيرورة، مجلة رمان، "استرجعت بتاريخ 2017/2/3م من موقع": https://2u.pw/cxkiIqmG.

لوسركل، جان جاك: عنف اللغة، ترجمة محمد بدوي، ط1: المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005م.

لو فيفن: اللغة ودارسوها (تاريخ اللغويات)، ترجمة محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب (الموسوعة اللغوية)، المجلد الثالث (بعض المظاهر الخاصة باللغة)، ط1: جامعة الملك سعود، الرياض، 1421هـ.

لويس، جون كالفيه: إيكولوجيا لغات العالم، ترجمة باتسي جمال الدين، ط1: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004م.

ليكوك، دونالد وموليسلر، بيتر: هندسة اللغة (لغات خاصة)، ترجمة محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب (الموسوعة اللغوية)، المجلد الثالث (بعض المظاهر الخاصة باللغة)، ط1: جامعة الملك سعود، الرياض، 1421هـ.

ليونز، جون: اللغة واللغويات، ترجمة محمد إسحاق العناني، ط1: مؤسسة رلي للنشر، عمّان، 1991م.

المسدّي، عبد السلام: الهوية العربية والأمن اللغوي، ط1: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 2014م.

ابن منظور، محمد بن مكرم (ت: 711هـ): لسان العرب، ط3: دار صادر، بيروت، 1414هـ.

موسى، سلامة: البلاغة العصرية واللغة العربية، ط2: دار ومطابع المستقبل، القاهرة، 1964م.

مونتغمري، سكوت: هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية – اللغة الإنجليزية ومستقبل البحث العلمي، ترجمة فؤاد عبد المطلب، سلسلة عالم المعرفة (419)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2014م.

References:

Ivic, Malika: Trends in Linguistic Research, translated by Saad Masloh and Wafa Fayed, 1st edition: Supreme Council of Culture, Cairo, 2000 AD.

Anis, Ibrahim: Methods of developing words in the language, 1st edition: New Nahda Press, Cairo, 1967 AD.

Ogden, Charles Key and Richards, Anver Armstrong: The Meaning of Meaning (a study of the impact of language on thought and the science of symbolism), translated by

Kian Ahmed Hazem Yahya, 1st edition: United New Book House, Benghazi, 2015 AD.

Pavo, Mary Ann and Sarfaty, George Elia: Major linguistic theories from comparative grammar to pragmatics, translated by Muhammad Al-Radi, 1st edition: Arab Organization for Translation, Beirut, 2012 AD.

Brockelmann, Karl: The jurisprudence of Semitic languages, translated by Ramadan Abdel Tawab, 1st edition: Riyadh University Press, Riyadh, 1977 AD.

Bakr, Al-Sayyid Yacoub: Studies in Arabic Philology, 1st edition: Lebanon Library, Beirut, 1969 AD.

Pinker, Stephen: The Linguistic Instinct (How does the mind create language?), translated by Hamza Qablan Al-Muzaini, 1st edition: Mars Publishing House, Riyadh, 2000 AD.

Chomsky, Naoum: Cartesian Linguistics - A Chapter in the History of Rational Thought, translated by Hamza Qablan Al-Muzaini, 1st edition: Dar Treasures of Knowledge, Amman, 2022 AD.

c. Bergstrasser: The grammatical development of the Arabic language, translated by Ramadan Abdel Tawab, 2nd edition: Al-Khanji Library, Cairo, 1994 AD.

Justice, David: The virtues of Arabic in the Western mirror or the significance of form in Arabic in light of European languages, translated by Hamza Qablan Al-Muzaini, 1st edition: King Faisal Center for Research and Islamic Studies, Riyadh, 1425 AH.

Ibn Jinni al-Nahwi, Abu al-Fath Othman (d. 392 AH): Characteristics, edited by Muhammad Ali al-Najjar, 4th edition: Egyptian General Book Authority, Cairo, 1999 AD.

Hajjaj, Claude: The Human of Speech (a linguistic contribution to the human sciences), translated by Radwan Zaza, 1st edition: Arab Organization for Translation, Beirut, 2003 AD.

Hassan, Tammam: Al-Usul, an epistemological study of linguistic thought among the Arabs, 1st edition: Alam Al-Kutub, Cairo, 2000 AD.

Dubecker, Loic: Understanding Ferdinand de Saussure according to his manuscripts (Intellectual Concepts in the Development of Linguistics), translated by Rima Baraka, 1st edition: Arab Organization for Translation, Beirut, 2015 AD.

De Swan, Abram: Words of the World (The System of Universal Languages), translated by Siddiq Muhammad Johar, 1st edition: Abu Dhabi Authority for Culture and Heritage, Abu Dhabi, 2011 AD.

Deleuze, Gilles: Bergsonism, Arabized by Osama Al-Hajj, 1st edition: University Foundation for Studies, Publishing and Distribution, Beirut, 1997 AD.

De Saussure-Ferdinan: Lessons in General Linguistics, Arabized by Saleh Al-Qarmadi, Muhammad Al-Shawish, and Muhammad Ajina, 1st edition: Arab House of Books, Tunisia, 1985 AD.

Decreaux Oswald, and Jean-Marie Schaefer: The New Encyclopedic Dictionary of Linguistics, translated by Munther Ayashi, 1st edition: Arab Cultural Center, Beirut, 2003 AD.

Dixon, Robert William: Are some languages better than others?, translated by Hamza Qablan Al-Muzaini, 1st edition: Dar Treasures of Knowledge, Amman, 2018 AD.

Robbins, Robert Henry: A Brief History of Linguistics in the West, translated by Ahmed Awad, World of Knowledge Series (227), National Council for Culture, Arts and Letters, Kuwait, 1997 AD.

Samson, Jeffrey: Schools of Linguistics (Rivalry and Development), translated by Muhammad Ziyad Kubba, 1st edition: King Saud University, Riyadh, 1417 AH.

Sibawayh, Amr bin Othman (d. 180 AH): The Book, edited by Abdul Salam Haroun, 3rd edition: Al-Khanji Library, Cairo, 1988 AD.

Shaheen, Abdel Sabour: Arabic is the Language of Science and Technology, 1st edition: Dar Al-I’tisam, Cairo, 1983 AD.

Ayyad, Shukri Muhammad: Language and Creativity: Principles of Arabic Stylistics, 1st edition: International, Cairo, 1988 AD.

Ibn Faris, Ahmed Al-Qazwini (d. 395 AH): A Dictionary of Language Standards, edited by Abdul Salam Haroun, 1st edition: Dar Al-Fikr, Cairo, 1979 AD.

Vandoloise, Claude: The independence of language and knowledge, in the book: Overviews of Linguistic and Semantic Theories in the Second Half of the Twentieth Century, translated by Thamer Al-Ghazi, 1st edition: The Tunisian Academy of Sciences, Letters and Arts (House of Wisdom), Tunisia, 2012 AD.

Fendris, Joseph: Language, translated by Abdel Hamid Al-Dawakhly and Muhammad Al-Qassas, 1st edition: National Center for Translation, Cairo, 2014 AD.

Fischer, Wolf Dietrich: The Arabic language within the framework of Semitic languages, Annals of the Tunisian University 23, 1984 AD.

Keller, Jonathan: Ferdinand de Saussure (The Origins of Modern Linguistics and Semantics), translated by Ezz El-Din Ismail, 1st edition: Academic Library, Cairo, 2000 AD.

Kayla, Salama: On the Process and Becoming, Rumman Magazine, "Retrieved on 2/3/2017 AD from the website": https://2u.pw/cxkiIqmG.

Losercle, Jean-Jacques: The Violence of Language, translated by Muhammad Badawi, 1st edition: Arab Organization for Translation, Beirut, 2005 AD.

Le Viven: Language and its Students (History of Linguistics), translated by Muhyiddin Hamidi and Abdullah Al-Humaidan, in the book (Linguistic Encyclopedia), Volume Three (Some Specific Appearances of Language), 1st edition: King Saud University, Riyadh, 1421 AH.

Lewis, John Calvet: The Ecology of the World's Languages, translated by Patsy Gamal El-Din, 1st edition: Supreme Council of Culture, Cairo, 2004 AD.

Leacock, Donald and Muehlheisler, Peter: Language Architecture (Special Languages), translated by Muhyiddin Hamidi and Abdullah Al-Humaidan, in the book (Linguistic Encyclopedia), Volume Three (Some Special Aspects of Language), 1st edition: King Saud University, Riyadh, 1421 AH.

Lyons, John: Language and Linguistics, translated by Muhammad Ishaq Al-Anani, 1st edition: Really Publishing Foundation, Amman, 1991 AD.

Al-Masadi, Abdel Salam: Arab Identity and Linguistic Security, 1st edition: Arab Center for Research and Policy Studies, Qatar, 2014 AD.

Ibn Manzur, Muhammad bin Makram (d. 711 AH): Lisan al-Arab, 3rd edition: Dar Sader, Beirut, 1414 AH.

Musa, Salama: Modern Rhetoric and the Arabic Language, 2nd edition: Al-Mustaqbal House and Press, Cairo, 1964 AD.

Montgomery, Scott: Does science need a universal language - the English language and the future of scientific research, translated by Fouad Abdel Muttalib, World of Knowledge Series (419), National Council for Culture, Arts and Letters, Kuwait, 2014 AD.